

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique

Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -

X•٥٧•٤X •KllE C:K:|A •llA•X - X:OEO:t -



جامعة البويرة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محمد أولحاج
- البويرة -

Faculté des Lettres et des Langues

كلية الأدب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي
التَّخْصُّص: لسانيات تطبيقية

دورالبنى اللُّغوية في استواء مفهومي "التَّثْبِيت والتَّمْكِين" في القرآن الكريم -دراسة دلالية-

مذكرة مقدّمة لاستكمال متطلّبات الحصول على شهادة الماستر

إشراف الأستاذ:

د. عبد الحفيظ شريف

إعداد الطّالبة:

هيبة الله مني

لجنة المناقشة:

رئيسا
مشرفا ومقرّرا
عضوا مناقشا

جامعة البويرة
جامعة البويرة
جامعة البويرة

1. دة. نوال زلاي
2. د. عبد الحفيظ شريف
3. د. عمر بورنان

السّنة الجامعية:

2025-2026م



قسم اللغة والأدب العربي
التَّخْصُّص: لسانيات تطبيقية

دورالبنى اللُّغوية في استواء مفهومي "التَّثْبِيت والتَّمْكِين" في القرآن الكريم -دراسة دلالية-

مذكِّرة مقدَّمة لاستكمال متطلَّبات الحصول على شهادة الماستر

إشراف الأستاذ:

د. عبد الحفيظ شريف

إعداد الطَّالبة:

هيبة الله مني

لجنة المناقشة:

رئيسا
مشرفا ومقرِّرا
عضوا مناقشا

جامعة البويرة
جامعة البويرة
جامعة البويرة

1. دة. نوال زلاي
2. د. عبد الحفيظ شريف
3. د. عمر بورنان

السَّنة الجامعية:

2025-2026م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

"الحمد لله على التَّمام، والحمد لله على التَّوفيق والختام"

إلى التي كانت دعواتها تحرسُ خُطواتي في عتمةِ الليالي؛

أُمِّي الغالية.

إلى الرَّجُلِ الذي لم يتوانَ يوماً في بذلِ الغالي والتَّفيسِ لأَصِلَ إلى ما أنا عليه اليوم؛

أبي العزيز.

إلى التي وقَّرت لي سُبُلَ الراحة، وكانت السندَ الخفيَّ وراء كلِّ نجاح؛

أختي مروي.

إلى الذين كانوا لي السندَ والدَّخيرة... أسامة ويعقوب؛

إلى أختٍ لم تلدها أُمِّي، عرفاناً بجميلها... لينا؛

إلى كلِّ من كان له فضلٌ عليّ ولم تُدركه الحروف،

أهديكم ثمرةَ هذا العمل المتواضع، راجية من الله أنْ يَمُنَّ علينا بعونه وتوفيقه.

هبة الله

شكرو عرفان

الحمد لله الذي وهب لنا التوفيق لإتمام هذا العمل؛ فما كان هذا العمل أن يكتمل لولا فضل الله ورحمته، فهو الذي وهب لنا العقل، وأمدنا بالصبر، ويسر لنا السبل لإتمامه. فلك الحمد يا ربّ حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

ومن باب قول المصطفى: «لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ» فإنه ليسرني ويشرفني أن أتقدّم بأسمى كلمات العرفان، وأصدق عبارات الامتنان إلى أستاذي الفاضل: عبد الحفيظ شريف، الذي كان أباً قبل أن يكون أستاذاً. فلكلمات الشكر تقف عاجزة أمام فيض عطائك، وما غرسته فينا من علمٍ راسخٍ، وقيمٍ نبيلةٍ تعجز الكلمات عن وصفها، من أخلاقٍ وتواضعٍ وطيبةٍ كنت نوراً يُهتدى به وأثراً طيباً،

ستبقى في قلوبنا ما حيينا. وإن انتهت سطورُ هذا البحث، فإن أثر فضلك لا ينتهي، ولا يبقى بيننا وبينكم إلاّ أصدق الدّعوات بظهر الغيب.

فأسأل الله الذي جمعنا على طاولة العلم أن يجمع لك بين رفعة الدنيا ومنزلة الآخرة، وأن يجعل كلّ حرفٍ وجهدٍ بذلته في موازين حسناتك وحسنات والدك، وأن يبارك في عملك وبيقيه عامراً بالخير والعطاء.

هبة الله

مقدمة

مقدمة: يتجلى الإعجازُ القرآنيُّ في كونه هندسةً بيانيةً متشابكةً في نسقٍ أبهر كلَّ من تلمَّس شيئاً من جوانبه فمن جمالية ألفاظه إلى إحكام أسلوبه وبديع تراكيبه، تتعالق مستويات التشكيل وتفتح طبقات التحليل اللساني وبين هذا وذاك تؤخذ العقول ببديع النسيج، وتذهل القلوب بشمول الإعجاز.

لا يتوقف إعجاز القرآن عند حدود المفردات فقط؛ بل يتجاوز ذلك ليشمل العلاقات الموجودة بين التراكيب، حيث تتضافر الأبنية الصوتية والصرفية والدلالية والتَّركييبية لإنتاج تناغمٍ داخليٍّ دقيقٍ يجعل من كلِّ مفردة مملكة في مكانها، فلا تقبل تبديلاً ولا تقديمًا ولا تأخيرًا. فموقع المفردة ليس اعتباطيًا، فقد انفرد لنظام دلاليٍّ محكم روعي فيه السياق والمقام، وهىئ ليحدث في المتلقي أثر الدهول فالاهتداء.

لقد اكتسبت المفردة القرآنية خصوصية ذاتية رشحتها لها أصواتها وبنيتها، ثم ما تلبس بها من حمولة موقعها داخل النظم البياني، فهي ليست وحدة لغويةً مستقلة؛ بل هي دلالاتٌ تتشكل معالمها من خلال تضافر مستويات تحليل لساني متعاقب، إذ يبدأ تشكُّل المفهوم من الجذر اللغوي الظاهر على السطح القرآني، ثم يمتدُّ فيكتسب دلالات جديدة من خلال السياقات المحيطة والظروف التاريخية والمقامية التي تغذيها علوم القرآن، كأسباب النزول التي تضيف أبعادًا واقعية على المفردة، أو الناسخ والمنسوخ الذي يجسّد حركية الدلالة وتدرجها نحو الاستقرار، أو المكّي والمدنيّ الذي يحتكم إلى ظروف المكان والاجتماع.

ومن خلال زمن النزول وظروفه ومكانه تكسب المفردة دلالةً مفهومية تتحوّل بها من (خصوصية المفردة) إلى (خصوصية المصطلح) بما تتمثله الوظيفة الجوهرية للمفردة القرآنية والتي وُضعت لمعنى وتحوّل بها ما أحاط إلى دلالات ومفاهيم، فتكتسب مفهومها المعجمي من واقع لغة العرب، وتكتسب معنى سياقيا من خلال الآية التي وردت فيها، ومن خلال ارتباطها بما قبلها وما بعدها.

ومن المفردات القرآنية ما يتجاوز ذلك ليكتسب دلالةً مصطلحية، فالمصطلح القرآني له بدايته اللغوية المستمدة من أرقى ما بلغه اللسان العربي زمن النزول، وبفعل ظروف النزول وأحوال المخاطبين لم يعد المصطلح القرآني مجرد وحدة لغوية مقيدة بمعناها المعجمي (اللغوي) الأصلي، بل أصبح ممثلًا لتلك

الحمولة الدلالية الجديدة التي لم تعرفها العرب من قبل، متجاوزا حدود السياق المباشر للآية، ومشكِّلا دلالةً أشمل وأكثر تراكمية من خلال الظروف المحيطة به، وصار لا يفهم معناه الصحيح الكامل إلا من خلال استحضار جميع مواضع وجوده في القرآن الكريم؛ إذ توزَّعت معانيه ودلالاته على السياق القرآني كـله.

لقد استند هذا التَّغْيِيرُ الجوهرى في تعيين المصطلح القرآني وضبط دلالاته أو دلالاته إلى هندسة النُّظْمِ القرآني التي أعادت تشكيل المادة اللُّغوية القرآنية وفق رؤية الكون كـله. ويصبح المصطلح القرآني النتيجة النهائيَّة لتفاعل دلالة الجذر اللُّغوي مع متطلَّبات الوحي ومقتضياته، مشكِّلا وَحْدَةً موضوعية قوية تتجاوزُ حدود الحروف لتصنع نظاما معرفيا إدراك التصوُّر القرآن الكريم، ويُبرز النَّصَّ القرآنيَّ خصوصيَّته المُعْجَزة في تشكيل المصطلحات وتحديد الدلالات.

ويتجلى الإعجاز على هذا الصَّعيد في قدرة المفردة القرآنية على استيعاب المعاني العميقة ضمن ألفاظ قليلة، فيما يُعرف (بالإيجاز المعجز). وضمن هذا النمط من البحث جاءت هذه الدِّراسة الموسومة بـ: "دور البنى اللُّغوية في استواء مفهومي التَّثْبِيت والتَّمْكِين في القرآن الكريم؛ دراسة دلالية" التي تستهدف متابعة مصطلحي "التَّثْبِيت" و"التَّمْكِين" في كلِّ السياقات القرآنية؛ وتداولتهما في كلِّ من الفترة المكيَّة والمدنية وتبيين كيفية إسهام الصِّيغ التي ورد بهما الجذران (ث ب ت) و (م ك ن) في القرآن الكريم في ضبط الدَّلالة.

تركَّز هذه الدِّراسة على البحث في مصطلحي (التَّثْبِيت) و (التَّمْكِين) من أجل تبيان حقيقتيهما اللُّغوية والمفهومية في السياق القرآني، وذلك من خلال تتبُّعهما في جميع مواضع ورودهما في القرآن، ونأمل أن نكون قد ألمنا بجميع الآيات التي أوردت الجذرين، ولم يصدر منَّا سهوٌ أو نسيان.

وإذ تندرج هذه الدِّراسة تحت ما يسمَّى بالدِّراسات اللُّغوية المستندة إلى أدوات لسانيات النَّصِّ، فإنَّها لم تغفل الاستعانة بعلوم القرآن ذات العلاقة كالمكيِّ والمدنيِّ والنَّاسخ والمنسوخ، وأسباب النُّزول، وأوَّل ما نزل وآخر ما نزل وما إليها. سالكين إلى المصطلح القرآنيِّ وسائط معتبرة كالمعاجم والتَّفاسير وكتب علوم

القرآن. معتمدين لذلك منهجية تستند على تناول الآيات مرتبة حسب النزول؛ حتَّى تتَّضح لنا كيفية ارتقاء المصطلحين في اكتساب المعاني والدلالات.

الإشكالية: تتمحور إشكالية الدراسة حول تتبُّع عملية التَّحوُّل الدَّلالي الذي طال المفردة العربية في نصوص القرآن، وتسعى إلى استكشاف المسافة الفاصلة بين المفردة في وضعها الأصلي (الوضع اللُّغوي) وبين تثبيتها كمفهوم اصطلاحِي اكتسب خصوصيته من أبعاد الوحي وضوابط الدَّلالة، ليظهر التساؤل حول الحمولة المعرفية التي اكتسبتها المفردة في القرآن الكريم عبر مراحل متعاقبة. أمدينة هي إلى الحمولة اللُّغوية الأصلية؟ أم إلى سياقات الوحي الدَّاخلية والخارجية في اكتساب مفردتي: (التَّثبيت) و(التَّمكين) لدالتيهما المصطلحية؟ وكيف تدرِّج السِّياقان في تحقيق الاستواء الدَّلالي المفهومي للمصطلحين ضمن الرؤية القرآنية المتكاملة؟

الدِّراسات السَّابقة: لم تقع يدي فيما جدَّ فيه بحثي على دراسات سابقة تطابقت مع هذا البحث؛ فقد اقتصرَت الدِّراسات السَّابقة على تناول مصطلح واحد منهما بمعزل عن الآخر وبأدوات مختلفة، وهو مقال بعنوان: مفهوم التَّثبيت في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية، للباحث عادل الوادي. وهي أبرز الدِّراسات المتقاطعة مع موضوع بحثي؛ إذ سعت إلى بناء مفهوم التَّثبيت القرآني من خلال تتبُّع دلالاته اللُّغويَّة واستعمالاته النَّصِّيَّة داخل المِيقاق القرآني. وقد كشفت عن الأبعاد الدَّلالية التي ينطوي عليها المصطلح وعلاقته بشبكة المفاهيم القرآنية المتَّصلة بمعاني الهداية والتَّأييد والتَّمكين والتَّزكية. غير أنَّ اهتمامها انصبَّ على دراسة مفهوم التَّثبيت في ذاته؛ بينما يفتح بحثي على استقراء البنى اللُّغوية المؤدِّية إلى استواء مفهومي التَّثبيت والتَّمكين معا، وبيان ما تؤدِّيه هذه الثَّنائية من وظائف دلالية داخل الخطاب القرآني.

أهمية الدراسة: تنبع أهمية الدراسة من كونها محاولة للكشف عن زاوية من زوايا التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وذلك بدراسة مفهومي قرآنيين متساندين هما "التَّثبيت" و"التَّمكين"، وتتَّبَع تطورهما الدَّلالي

عبر مراحل التنزيل، وصولاً إلى بناء الرؤية القرآنية الكلية التي تربط بين إعداد الإنسان نفسياً وروحياً وبين تمكينه حضارياً وواقعياً.

أسباب اختيار الموضوع: لقد دفعتني إلى اختيار الاشتغال على الموضوع أسباب ومبررات منها:

- الرغبة في خدمة الكتاب العزيز، والكشف عن جانب من جوانب الإعجاز البياني.
 - الميل في اكتشاف زاوية أخرى من زوايا التفسير الموضوعي القائم على ضبط المصطلح القرآني.
 - تجاوز دراسة المفردة في مستواها المعجمي، إلى دراسة تستحضر سائر المستويات الأخرى.
 - دعم الجبهة التي تردّ مزاعم القرآنيين وهم يفصلون دلالات القرآن عن سياقات تلقتها الأمة بالقبول.
- المنهج المعتمد:** اعتمدت الدراسة على **المنهج الوصفي بأسلوب التحليل**، نظراً لكونه الأنسب لمثل هذه الأبحاث؛ إذ يقوم بوصف البنية اللغوية التي ورد عليها المصطلحان من (صيغ وتراكيب) كما أوردها القرآن الكريم، ثم تحليلها من الناحية الدلالية لتحقيق الهدف المقصود، بالاعتماد على أدوات التحليل الدلالي (الحقول الدلالية - السياق - أسباب النزول...) والالتكاء أحياناً على بعض أدوات **المنهج التاريخي** في ترتيب الآيات حسب النزول، ومعرفة الأحداث التاريخية المؤثرة في الدلالة.

بنية البحث: جاءت هذه الدراسة في مقدمة ومدخل تمهيدي وفصلين وختم بخاتمة تضمنت نتائج البحث.

تتأول المدخل قضية أنماط المصطلحات القرآنية وموقعها من الدلالة القرآنية وأثرها فيها.

وتتأول الفصل الأول تحت عنوان: مصطلح "التثبيت" في القرآن الكريم؛ مسار اكتساب المصطلح للمفهوم. وتتبع الجذر (ث ب ت) عبر مبحثين، تتأول المبحث الأول حضور الجذر في المرحلة المكّية، فيما تتأول المبحث الثاني حضور الجذر في المرحلة المدنية.

أما الفصل الثاني فقد جاء بعنوان: التَّمَكِين في القرآن الكريم؛ اكتمال معاني الاستعمال. وتتبع الجذر (م ك ن) عبر مبحثين أيضاً، تابع المبحث الأول حضور الجذر في المرحلة المَكِّيَّة، وتابع المبحث الثاني حضوره في المرحلة المدنية.

ثمَّ كانت الخاتمة التي أجملت نتيجة البحث العامة، وفصلت في نتائج جزئية بلغتها الدراسة.

المصادر والمراجع: اعتمد البحث الجمع بين أبرز المعاجم العربية، وأكثر التفسيرات جنوحاً إلى الدراسات اللغوية، فكان أكثر اعتمادنا على:

- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس؛
- لسان العرب لجمال الدين بن منظور؛
- تاج العروس من جواهر القاموس. لمرتضى الزبيدي؛
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. لمحمود بن عمر الزمخشري؛

- البحر المحيط في التفسير. لأبي حيان الأندلسي؛
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. لابن عطية الأندلسي؛
- التحرير والتنوير. لمحمد الطاهر بن عاشور؛
- فتح البيان في مقاصد القرآن. لأبي الطيب محمد صديق خان.

الصُّعُوبَات: من الصُّعُوبَات التي واجهتني ضيقُ الوقت، كوني تعاملت مع مدونة لها خصوصيتها القدسية؛ بما تحمل من الإعجاز اللغوي، وما تكتنزه من كثافة وعمقٍ دلاليٍّ؛ ممَّا صَعَّبَ عليَّ الوصول إلى تحليلٍ شامل ودقيقٍ في مدَّةٍ وجيزة.

وفي الأخير، فإنَّ وُقِّعنا في هذا العمل فهذا فضلٌ من الله أولاً، ثمَّ بما قدمه الأستاذ المشرف من توجيه ودعم ومتابعة مستمرة، كان لها أبلغ الأثر في إنجاز هذا العمل، وإنَّ أخطأنا فمن أنفسنا؛ وكلَّ ما نريده هو السَّعي لخدمة القرآن الكريم واللِّسان العربي المبين.

مدخل

مصطلحات البحث ومفاهيم التأسيس

بُنيت الكثير من مفاهيم القرآن الكريم على مفردات تمّ تحديد معانيها بدقّةٍ شديدة حسب السّياق والاحتياجات، باعتباره كتابَ هدايةٍ وإرشاد، فلا يمكن النّظر إلى المفردات القرآنية على أنّها وحدات لغويةٌ معجميةٌ فقط، بل هي كائناتٌ حيّةٌ تتحرّك ضمن شبكةٍ متداخلة من الرّوابط. فالمفردة القرآنية جوهرٌ أساسٌ تبنى عليها المعاني، ولها من المميّزات والخصوصيّات ما يجعلها عنصراً دلاليّاً وجماليّاً متكاملًا؛ كما أنّها ليست وليدة المصادفة؛ بل أودعت في مكانها بإتقانٍ روعيٍ فيه توافُق الأصوات مع المعاني، وتوافُق الصّيغ الصّرفية مع المقاصد الدّلالية.

يَتَّفِقُ أَهْلُ التّفْسِيرِ واللُّغَةِ على "أنّ التّعبير القرآني تعبيرٌ فريدٌ في علوّه، وأنّه أعلى الكلام وأرفعه"¹ فضلاً عن أنّه قد اجتمع للقرآن الكريم عاملان أحدهما: ربّانيّ وهو ما أودع من سرّ الوحي، فهو كلام ربّ العالمين. وثانيهما: لغويّ وهو الذي يجدد من خلاله العنصر القرآنيّ نفسه وفقاً للسّياق الذي يظهر فيه. بحيث تتجاوز الكلمات القرآنية معانيها المباشرة لتقوم بعدّة وظائف؛ فهي تُجسّد وتؤثّر وتوجّه، وتبني شبكةً من العلاقات مع كلماتٍ أخرى داخل النّصّ القرآني، ممّا يمنحها عمقاً واتساعاً دلاليّاً.

وإضافةً إلى ذلك، فإنّ العنصر اللّغويّ القرآنيّ بمختلف أشكاله ارتبط بمقام الخطاب بحيث تخدم أغراضه من هدايةٍ وترهيبٍ وترغيب، وتُسهم في تحقيق الإعجاز البلاغيّ؛ إذ يجتمع فيها الجمال الفنّي والدقّة اللّغوية في نسقٍ مُحكمٍ لا يمكن تغييره أو تقديمه أو تأخيره دون أن يتغيّر المعنى أو يضعف الأثر. فطبيعة العنصر اللّغويّ القرآني يتجاوز الوصف اللّغويّ السطحيّ ليشكّل هيكلًا دلاليًا عميقًا يتفاعل مع السّياق ويضبط المعنى، ليصبح بمثابة كيانٍ متماسك يؤسّس لرؤية الكون.

ولتفكيك هذه الألفاظ على المتأمل في العناصر اللّغوية القرآنية أن يدرك أنّ طبيعتها لا تسير وفق نمطٍ ثابتٍ ومعيّن، بل تتجلّى من خلال اختيار "لفظة من ألفاظ القرآن، ويتتبّعها من خلال الآيات والسّور بحيث يجمع اللفظة بكلّ اشتقاقاتها وتصاريحها، ثمّ يحيط بتفسيرها مستنبطاً الدّلالات واللّطائف في ورود

¹ - فاضل السّامرائي، أسرار البيان في التّعبير القرآني، ط1، دار ابن كثير، سوريا، 2015م، ص11.

هذه اللفظة على ما وردت عليه¹ وتُعدّ دراسة المصطلح من خلال هذه الرؤية التي تأخذ في الاعتبار دلالاته الذاتية أو تجلياته بمساعدة غيره أو تكامله على المستوى الكلي، ضرورةً منهجيةً من أجل فكّ شفرات الإعجاز البلاغي؛ فهي تنقلنا من التفسير الجزئي الذي يركّز على الكلمة ضمن حدود آيةٍ معيّنة، إلى التفسير الموضوعي الذي ينظر إلى القرآن ككلٍّ متكامل،: "الاعتناء بدراسة الموضوعات القرآنية على غير الصورة التقليدية في التفسير، وإنما بالنظر إلى الأبواب، كدراسة: الإيمان والكفر والنفاق في القرآن، الأخلاق في القرآن، الرّبا في القرآن"² حيث تُفسّر أجزأؤه بشكلٍ يتكامل ويتوافق بعضها مع بعض، لتبرز في الأخير المفاهيم العميقة.

1- مصطلحات مستقرّة ذاتيا، أو المصطلح الدالّ بذاته (الأيقوني): من المؤكّد أنّ زيادة الاهتمام بالمصطلح القرآني تُعدّ من التّطوّرات الحديثة في المجال القرآني، وإنّ كانت معالمه وسماته قد بدأت تظهر منذ زمن التّنزيل.

ومن نماذج هذا النوع من المصطلحات الدالّة بذاتها مثلاً: فرعون، وقارون، والسّامري؛ حيث لم تُعدّ تدلّ على أسماء أعلامٍ فقط. فلقد أصبح مصطلحُ فرعون يتجاوز كونه اسماً لملك، ليصبح علامةً دالّةً من خلال تكرار قصته في سياقاتٍ مختلفة، وربط شخصيته بمجموعةٍ من الصّفات الثّابتة مثل: الاستبداد، وادّعاء الرّبوبية، والظلم، والتّجبر، ومخالفة الحقّ. وهذا التّكرار لم يكن مجرد سردٍ تاريخي، بل يهدف إلى تحويله إلى رمزٍ يُستدعى كلّما وُجد الاستبداد والطّغيان.

¹ فضل حسن عبّاس، التفسير والمفسّرون أساسياته واتّجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، ط1، دار النَّفائس للنّشر والتّوزيع، الأردن، 1437هـ-2016م، ج1، ص647.

² عبد الله بن يوسف العنزي، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ط1، مركز البحوث الإسلامية، ليدز، بريطانيا، 1422هـ-2001م، ص389.

ومع تراكم هذه الدلالات في القرآن، أصبحت مفردة فرعون ليست مجرد إشارة إلى فرد معين، بل تحولت إلى مصطلح قرآني يُستخدم للإشارة إلى كلّ من يتبع نهج الطغيان والتعالي في الأرض، ومن ثم أصبح رمزاً لأساليب المستبدين وعواقبهم في مواجهة دعوات الحق والإصلاح.

وأما قارون فقد تجاوز كونه شخصية تاريخية لها وزنها في السلطة ليعكس دلالة رمزية متكررة، وذلك من خلال تصويره ضمن سياقٍ موحّد يُبرز أهمّ صفات الانحراف الأخلاقي والمالي. فنجد أنّ القرآن قدّمه نموذجاً للإنسان الذي يطغى بسبب المال، ويظلم قومه، ويغترّ بثروته.

فمن خلال ما عُرض في القرآن، لم يعد يُنظر إلى قارون على أنّه مجرد شخصية من بني إسرائيل؛ بل أصبح دالّاً على من يتكبر بالثروة، وينكر النعم، ويتجاهل مصدرها الحقيقي. وتتجلى نهايته أنّ الله خسف به الأرض، ليتبيّن لنا كيف أنّ الطغيان عندما يرتبط بالغرور يؤدي إلى الهلاك. وضمن هذه الحركية أصبح اسم قارون عنواناً على المال الفاسد والغرور المرتبط بالمنصب.

وفي الإطار ذاته صار لفظ (السّامري) اسماً يحيل على معنى رمزيّ يتجاوز الإشارة إلى شخصيته التاريخية، ليصبح عنواناً للفتنة التي أدت إلى عبادة العجل بعد غياب موسى عليه السلام، وعُدّ مصطلح السّامري رمزاً للانحراف والبهتان والافتراء والتضليل.

2- مصطلحات تتجلى دلالاتها على مستوى السطح القرآني كلّها: وعلى صعيد آخر تأخذ

مصطلحات أخرى من الكتاب الكريم تموضّعاً آخر، ومن النماذج الجليّة الدالّة في ذاتها نجد اسم الله تعالى؛ إذ إنّ البنية النحوية والبلاغية في القرآن تجعله دائماً موصوفاً، فهو أعرف المعارف الدالّ على الذات الإلهية الجليّة الموصوفة بصفة الكمال المطلق، بينما تأتي الأسماء الأخرى المصاحبة تابعة له كصفات. فنقول: هي أسماء الله، ولا يمكن أن نقول: من أسماء الرّحيم الله. وتتجلى هذه الصفات في الغفران، والرّحمة، والإحاطة، والخلق، والوحدانية... ولكن في كل هذه الصفات نجد أنّ اسم الله يحتفظ بجوهره الدلالي الذي يعبر عن الألوهية والعبادة.

ومن ذلك مصطلح (يوم القيامة) مثلاً؛ فهو من المصطلحات التي دلّت على مفهومها عشرات المصطلحات، فنجد يوم القيامة، الذي هو اليوم الآخر، ويوم الدين ويوم التغابن ويوم التناد ويوم التلاق، والطامة، والصّاحة، وغيرها كثير. فرغم تعدّد المصطلحات الدّالة عليه؛ إلّا أنّه يعود على شيء واحد، وهو اليوم الأخير من الدُّنيا الذي لا يوم بعده، وإنّ تعدّدت أوصافه، فإنّه يبقى دالّاً على حقيقة واحدة.

ويُعدّ مصطلح (الأمة) نموذجاً آخر للمصطلحات القرآنية التي لا تُدرك دلالتها الكاملة إلا من خلال تتبّع مواردها المختلفة في القرآن الكريم، مثال ذلك ما يظهر فيه مصطلح الأمة؛ فهو جذر واحد في جميع المواضع، لكن لا يمكن حصره في دلالة واحدة، لأنّ معانيه تختلف باختلاف السياق، فالصياغة القرآنية هي التي تحدّد معناه.

ومن أمثلة ذلك: أنّ مفردة الأمة قد تُطلق على جماعة بشرية، وهو المعنى الأكثر تداولاً، حيث تُسند إلى مجموعة تشترك في هدفٍ أو عقيدة واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104] وقد تأتي الأمة بمعنى فترةٍ من الزمن، قال تعالى: ﴿سَمِعُوا قَوْلَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ سَجَى﴾ [يوسف: 45] وفي مثال آخر يشير المصطلح إلى الفرد الذي يجمع الخير، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120]؛ فهنا يتحوّل المصطلح إلى وصفٍ للفرد، الذي يحمل مجموعة من الفضائل والقيم التي قد تتوزّع على أمةٍ بأسرها.

وهكذا ولمعرفة دلالة المصطلح ينبغي علينا متابعة خيوطه المتشعبة في النسيج النصّي بأكمله لاستنتاج المعنى الشامل الذي يتمحور حول الجمع والقصد. فكلّما اجتمع البشر أو الزمن أو الخصال على هدفٍ نبيلٍ واحد، استحقّ أن يُطلق عليه لفظ أمة؛ وهذا هو السبب في أنّ معناه لا يظهر إلّا من خلال النّظر في القرآن بأكمله.

3- المصطلح الذي تتجلى دلالاته في ضوء مسانده: ومن أنماط المصطلحات القرآنية ما تتجلى

دلالاته في ضوء مسانده لمصطلح يدعمه، فيكتسب مفهومه في ظلّ مقابلة مضادّه من ألفاظٍ أخرى،

نجد من ذلك مثلاً: "القلة والكثرة" في القرآن. فهذان اللفظان من الألفاظ التي تطلب لنفسها تفاعلاً وتشابكاً لفهمها بشكلٍ أعمق؛ إذ لا يكتمل فهم أحدهما بشكل كافٍ دون وجود الآخر، ولا يمكننا إدراك قيمة القلة إلا عند مقابلتها بالكثرة.

ومن خلال هذا التّقابل، يشير القرآن إلى أنّ الميزان ليس مجرد قياسٍ كمّي، بل هو ميزانٌ ذو قيمة؛ فقد ترتبط القلة بالثبات والحق، بينما قد ترتبط الكثرة بالصّياح أو الغفلة. وبالتالي، فإنّ معنى هذين المصطلحين لا يكون مستقلاً بذاته، بل يعتمد على العلاقة التبادلية التي تكشف عن سننٍ ربانيةٍ في الهزيمة والنّصر، وفي تقييم الأفعال والمواقف، ممّا يجعلهما معاً وحدةً دلاليةً كاملة.

4- مصطلحا "التّثبيت والتّمكن" في القرآن الكريم؛ اكتساب المصطلحين للمفهوم: أمّا بخصوص

موضوع بحثنا فقد يصنّف ضمن نمط المصطلحات التي تتجلى دلالتها الكاملة في ضوء مساندها لمصطلح آخر، وتتمحور حول دراسة الجذرين: (ث ب ت) و(م ك ن) ومتابعة حضورهما في القرآن الكريم، وأول الحقائق الدّلالية لهذين المصطلحين هو أنّ لكلٍ منهما دلالة قائمة، ولكنّ المقصود بالدراسة هو متابعة دلالتهما في سياق تسانديٍّ وهو ما لا يمكن من خلاله فصل مفهوم أحدهما عن الآخر فكان الأكمل والأجمل أن ندرسهما متساندين لكي تتضح صورتها الدّلالية أكثر.

كما لا يفوتنا التنبيه إلى أنّ اختيار هذين المصطلحين لا يعني اكتفاءهما بنفسيهما دون غيرهما، فمصطلح التّثبيت قد يدرس مسانداً لمصطلح (الابتلاء) مثلاً. فتكون الدّراسة حول مصطلحي: الابتلاء والتّثبيت، لكنّ الدراسة على هذا المستوى ستبقى على أفق مصطلح التّثبيت محدوداً، فالابتلاء والتّثبيت يمضي مفهوم كلٍ منهما إلى مرحلة حركية مجتمعية محدودة، أمّا اختيار مصطلحي: التّثبيت والتّمكن فمسار مفهوميهما وسياق حضورهما القرآني تداوليّ يترافق فيهما التّثبيت حتّى التّمكن، فيكون نهاية مستهدفة.

وسعيًا في تحقيق هذا الجانب؛ سوف نتابع طريقة اكتساب المصطلحين (التثبیت) و(التمكن) دلالتهم ومفاهيمهما من خلال الاستعانة بالعلوم القرآنية القديمة، كمعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، ومراعاة ترتيب النزول، وغيرها مما يحتاج إليها متدبر القرآن في مكانه، لأن المصطلح القرآني ذو أصل لغوي، تحكمه صيغ صرفية ومعانٍ تركيبية، قبل أن يستقر في سياقات متنوعة، وقد رافقت الدلالة اللغوية لهذين المصطلحين سياقات خارجية مثل سياقات النزول، سياقات الحروب، سياقات الوحي وغيرها، آخذين في الاعتبار أن الوحي المكي غير الوحي المدني، وأن التثبیت المكي غير التثبیت المدني، والتمكن المكي غير التمكن المدني.

ولتحقيق أدق ما يمكن من الدلالة الفردية والدلالة التأسيسية للمصطلحين؛ فضلت الدراسة متابعة مصطلحات الجذرين (ث ب ت) و (م ك ن) حسب ترتيب النزول لكي "يندمج القارئ في جو نزول القرآن وجو ظروفه ومناسباته ومداه، ومفهوماته وتتجلى له حكمة التنزيل"¹ ذلك أن اللغة حيّة ومشحونة بحمولة لغوية هائلة كما جاء في المقولة اللسانية: "اللغة كالكائنات الحيّة، تولد، وتنمو، تشبّ، وتهرم ثم تموت"². أي تتطور وتكتسب في واقعها دلالات لغوية لأنها تتأثر بالزمن، فإذا لم تستعمل في المجتمع بالشكل اللازم؛ ضاق استعمالها أو ماتت.

ويختلف الأمر بالنسبة للمفردة أو المصطلح القرآني، فقد اكتسب دلالاته الأولى زمن النزول التي كانت وحيا من الله في قوالب عربية، رافقتها سياقات كثيرة حتى اكتملت. فلما ختم القرآن ختم معه استقرار المفهوم وقد اكتسب دلالات متجددة من التأمل البشري الذي يستخرج المعنى من النص دون أن يُخرجه

¹ - محمد عزة دروزة، التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1984م، بيروت، لبنان، ج1، ص9.

² - صافية زفندي، المعجمية والمعجمات اللغوية العامة العربية الحديثة، ط1، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، 2007م، ص78.

عن أصول العربية التي نزل بها؛ "لأنها كانت من أهم المصادر وأوثقها في معرفة كلام الله"¹؛ ومن أراد معرفة المدلولات من غير العربية، أو "اعتمد معاني محدثة أو مولدة... كان من أهل التحريف والزيف"². ومن ثم تُعدّ اللغة الثابتة إلى غاية عصر الاحتجاج هي المرجع الذي يُعَوَّل عليه في تفسير القرآن، وما سواها لا يُعتدّ به ولا يُوثق بمصدره. وعلى ذلك بنى علماء التفسير قاعدة عامّة مفادها: لا يُفسّر القرآن بالمعاني الحادثة.

وبناء على ما سبق من هذا الاستهلال بين يدي العمل يمكننا أن نعدّ دراستنا هذه شكلاً معاصراً من أشكال التفسير القائم على ضبط معنى المصطلح، الذي يؤسّس للتفسير الموضوعي، وهو تفسير يستند إلى علوم اللغة وعلوم القرآن وفق منهج واضح، مع الاستعانة بأدوات لسانيات النص. وبهذه الطريقة يمكن أن نقول إننا نردّ على تيار القرآنيين الذين يقولون "بنفي السنّة والشريعة الإسلامية، وتبني فكرة: القرآن هو المصدر الوحيد للدين الإسلامي يستقلّ بنفسه وينفي ما عداه"³ وهذا الاتجاه - على كثرة ما وجّه له من نقد - يمثّل قراءة جزئية للنصّ القرآني، إذ يعتمد على فصل بعض معانيه عن سياقها، ممّا يُخلّ بالبنية التكاملية للتشريع الإسلامي، لأنّ السنّة هي الشارحة للقرآن المفصلة لمجمله والمقيّدة لمطلقه والمخصّصة لعمومه وهذا الذي مضت عليه الأمة وتلقّته بالقبول.

¹ - مساعد الطيّار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ط1، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2011م، ص5.

² - المرجع نفسه.

³ - عزوز بن عمر الشوّالي، التناول الحداثي للخطاب الشرعي الإسلامي وإشكاليات المنهج، ط1، مجمع الأثرش للكتاب المختص، تونس، تونس، 2017م، ص110.

الفصل الأول

مصطلح "التَّثْبِيت" في القرآن الكريم؛

مسار اكتساب المصطلح للمفهوم

يعكس اختيارُ دراسةِ مصطلحي (التثبيت) و(التمكين) بوصفهما مفهومين متساندين دلاليًا، ويمثّلان وَحْدَةً عضوية تُدرج النصّ القرآني في بناء الفرد والجماعة. وليس هذا التّساند مفهوما لغويًا مجردًا؛ بل هو توثيق لغويّ لمسار زمنيّ محكوم بخصوصيات المرحلة الدّعوية، بحيث يشتغل "التثبيت" في البيئة المكّية كعامل روحيّ ونفسيّ لترسيخ اليقين في مواجهة الاستضعاف. وذلك من أجل التمهيد نحو (التمكين) كحقّ اجتماعيّ وسياسيّ وتطبيقيّ في البيئة المدنية، وبالتالي، فإنّ دراسة هذين المصطلحين معًا تتيح لنا فرصة رصد عملية صيرورة المصطلح وهو يتحرّك ضمن إطار الزمن، متأثرًا بالسياقات المحيطة به كالعوامل الاجتماعية والدّعوية، ممّا يكشف عن التّكامل بين تثبيت القلوب وتمكين الأقدام في تشكيل الوحي المعجزة.

1- حضور مادّة (ث ب ت) في القرآن المكّي؛ من دلالة اللّغة إلى المفهوم القرآني: يتّبع هذا

المبحث جذر (ث ب ت) في المعاجم العربية، ويبين دلالاته الأصلية، وذلك من أجل توضيح كيفية تطوّر المفهوم تدريجيًا في السّياق القرآنيّ، لأنّ بداية المصطلح القرآنيّ كانت لغوية، ومع الزمن وتفاعل عناصر كثيرة؛ اكتسبت المادّة دلالة معجمية ارتبطت في الغالب بالاستقرار والثّبات والرّسوخ، لتكتسب معاني ودلالات جديدة.

1-1 مسار مادّة (ث ب ت) في اكتساب الدلالة المعجمية: ورد في لسان العرب في المادّة موضوع

الدّرس أنّ "ثَبَّتَ الشَّيْءُ يَثْبُتُ ثَبَاتًا وَثُبُوتًا، فهو ثابتٌ"¹ وهي عبارة تدلّ على استقرار الشّيء في موضعه وعدم زواله عنه. ويتّضح هذا المعنى أيضًا في قوله: "ثَبَّتَ فُلَانٌ فِي الْمَكَانِ يَثْبُتُ ثُبُوتًا فهو ثابتٌ إذا أقام به"² والمقصود هنا أنّه لزم موضعه ولم يفارقه. فاستقرّت الدّلالة الحسيّة للجذر على معنى الاستقرار المكاني والرّسوخ المادّي. ثمّ اتّسع معنى الجذر (ث ب ت) لياخذ دلالة أعمّ، فشمل التّمكن والاستقرار في مختلف

¹ جمال الدّين بن منظور، لسان العرب، تح: اليازجي وآخرون، ط3، دار صادر، بيروت، 1993م، ج2، ص19.

² المرجع نفسه.

الأحوال، لا في المكان فقط، بل أيضا في الصفات والأفعال. ويظهر ذلك في قولهم: "فَرَسٌ ثَبَّتٌ"¹ بمعنى أنه قويٌّ متمكِّنٌ في عدوه. وقولهم: "رجلٌ ثَبَّتَ العَدْرَ"² أي: ثابتٌ عند الخصومة أو المواجهة.

وتكشف هذه الاستعمالات عن انتقال الدلالة من الثبات الحسي إلى معنى أوسع يشمل الرُسوخ والتَّمكُّن في الأداء أو السلوك، وهو ما يمثِّل المعنى الكلِّي الذي يجمع هذه الاستعمالات المختلفة تحت مفهوم عام هو الاستقرار والتَّمكُّن والرُسوخ، سواء كان ذلك في القوَّة أو في الموقف.

كما نجد أنَّ الجذر قد انتقل إلى دلالة ذهنية مجردة تتعلَّق باليقين والتَّثَبُّت في الرأْي والحُكْم، ويظهر ذلك في قولهم: "تَثَبَّتَ في الأمر... واستَثَبَّت"³ أي: تمهَّل فيه وطلب التَّحَقُّق من قبل إصدار الحكم. ويتجلى هذا المعنى أيضا في استعمال الثَّبَّت بمعنى الحُجَّة، كقولهم: "لا أَحْكُمُ بِكَذَا إِلَّا بِثَبَّتٍ"⁴ أي بدليل وبرهان. ويظهر المعنى المجرَّد من خلال الاستخدام القرآني، على سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيكَ مِنْ أُنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا تُنَبِّئُ بِهِءُ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120] أي: تُسَكِّنُ به القلب ونزيده طمأنينة. وبذلك يصبح الثَّبَات هنا دالا على الرُسوخ المعنوي واليقين النَّفسي.

ومن المعاجم التي تناولت الجذر (ث ب ت) أيضا مقاييس اللُّغة حيث قال: "الثاء والباء والتاء كلمة واحدة وهي دوام الشيء"⁵ وتدل هذه العبارة على أنَّ المعنى الجامع لهذا الجذر هو الاستمرار والاستقرار وعدم الزوال. ثمَّ يُورد مثالا لذلك بقوله: يُقال: ثَبَّتَ وثَبَاتًا وثُبُوتًا⁶. ويفهم من هذا المثال أنَّ الفعل ثَبَّت يدلُّ

¹ - جمال الدين بن منظور، لسان العرب، ج2، ص19.

² - المرجع نفسه.

³ - المرجع نفسه.

⁴ - المرجع نفسه، ص20.

⁴ - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللُّغة، تح: عبد السلام محمَّد هارون، ط2، دار الجيل ودار الفكر، بيروت، 1972م،

ج1، ص399.

⁵ - المرجع نفسه.

على استقرار الشيء ورسوخه وعدم زواله، وهو ما ينسجم مع الأصل الدلالي الذي بيّنه ابن فارس لهذا الجذر، والمتمثل في دوام الشيء وثباته. كما يقول: "رجل ثَبَّتْ وَثَبَّتْ¹". وفي هذا الاستعمال دلالة على رسوخ الرأي وقوة الفهم، ممّا يبين انتقال المعنى من الثبات الحسي إلى الثبات المعنوي. ويؤكد ذلك الشاهد الشعري الذي أورده طرفة بن العبد في قوله من [المديد]:

ديوان طرفة بن العبد (ص73)

فَالْهَبِيتُ لَا فَوَادَ لَهُ *** وَالتَّيَّبْتُ نَبْنُهُ فَهْمُهُ²

حيث يدلّ وصف التثبيت على ثبات العقل ورسوخ الفهم، وهو ما يعزّز المعنى العام للجذر القائم على الدوام والاستقرار.

وبالنظر إلى ما ورد في المعاجم؛ يتضح أنّ الجذر (ث ب ت) يعكس معنى واحدًا جوهريًا يتمثل في الدوام والاستقرار، ويظهر هذا المعنى حسيًا في رسوخ الأشياء، ومعنويًا في ثبات الرأي وقوة الفهم. ويتبين أنّ دلالة هذا الجذر قد تدرّجت بها المعاجم من المعنى الحسي المتمثل في الرسوخ المادي، إلى المعنى الكلّي الذي يدلّ على التمكن والقوة والاستقرار في الصفات والأفعال، كالثبات في القتال أو الموقف وبعد ذلك انتقل اللفظ إلى المعنى المجرد الذي يدلّ على رسوخ المعاني في النفس أو العقل، مثل اليقين والتثبت واطمئنان القلب. وهكذا يتبين أنّ هذه المعاني الثلاثة تعود في جوهرها إلى فكرة واحدة هي الاستقرار والرسوخ.

1-2- الجذر (ث ب ت) في القرآن المكّي؛ تدرّجات اكتساب المفهوم: ستستعرض الدراسة الآن

المفردات القرآنية التي انطوى عليها الجذر (ث ب ت) في مواضعها من الآيات والسور، مع مراعاة سياقاته

¹ - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج1، ص399.

² - ديوان طرفة بن العبد، تح: مهدي محمد ناصر الدين، ط3، دار الكتب العلمية، 1423هـ-2002م، ص73.

الخارجية (المقامية) التي رافقت تشكُّله بحيث أنَّ (التثبيت) قد خضع لعملية بناء تراكمية، أطرتها عوامل لغوية احتفظت فيها المادة بالمعنى اللغوي العام، وأحاطت بها العوامل والسياقات التي رافقت النزول بكلِّ أحوالها.

1-2-1- تثبيت فؤاد النبي ﷺ بطريقة نزول القرآن: أوَّل المواضع التي نبدأ بدراستها وفق المنهجية

التي عرضت في المدخل؛ هو موضعُ سورة الفرقان، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان:32] وقد وردت الآية في سياق الردِّ الإلهيِّ على الشُّبهة التي أثارها المشركون حول الطَّريقة التي نزل بها الوحي الكريم، حين عدّوا نزول القرآن مفرَّقًا طريقًا إلى الانتقاص، وقد بلغهم من حال نزول الكتب السابقة النَّزول الإجمالي، فجاء الردُّ الإلهي الحقُّ بصيغة الفعل المضارع المسند إلى نون العظمة، معتبرا أنَّ هذا الشَّكل من النَّزول له مبرِّره، وهو التَّثبيت المقصود به قلب النَّبي ﷺ بما يكون عليه من تزويدٍ متواصل، ومدد مستمرٍّ. وأمام المواجهة المستمرة لعناد المشركين وتكذيبهم؛ فيحتاج القلب النَّبويُّ الكريم إلى جرعاتٍ متكرِّرة من الوحي، وذلك استقواء على مواجهة التَّكذيب والسُّخريَّة.

لقد كان القرآن الكريم بهيئة نزوله هذه وسيلة مباشرة لهذا التَّثبيت، ولضمان القوَّة النَّفسية للنَّبي ﷺ كما قوَّى اقترانُ الفعل بلام التَّعليل ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ الدَّلالة على متابعة من أنَّ نزوله مفرَّقًا على قلب النَّبي ﷺ كان لحكمة "أنَّ نُقْوِي بتفريقه فؤادك حتَّى تعيه وتحفظه، لأنَّ المتلقِّين إنَّما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيءٍ، وجزءاً عقيب جزءٍ. ولو أُلقي عليه جملةً واحدة لبعل به وتعيًا"¹. ومن ثمَّ فإنَّ التَّثبيت هو وسيلةٌ لِلتَّمَكُّن ممَّا ينزل، وأداةٌ لتقوية الإيمان، وغرس الطُّمأنينة في قلب النَّبي ﷺ.

¹ - محمود بن عمر الرَّمْخسري، الكشَّاف عن حقائق غوامض التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل، تح: مصطفى حسين أحمد، ط3، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، 1987م، ج3، ص278. و"بَعَلَ الرَّجُلُ: إذا دهَّشَ. (المقاييس، ابن فارس، ص99) "وتعيًا من "عَيَّ" و "عَيَّي" "عَيَّي فلان بَيَّاءين بالأمر، إذا عجز عنه" (تهذيب اللُّغة، الأزهري، 164/3)

1-2-2- تثبیت النبی ﷺ ضد الرجوع والتنازل: وبالاتقال إلى موضع سورة الإسراء: ﴿وَلَوْلَا أَنْ

تَبَيَّنَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 74] الذي جاء بعد نزول الفرقان؛ يأخذ التثبيت بُعد الوقاية والحماية، فيردُّ التثبيت بمعنى الصيانة من الانحراف نحو استدراج المشركين أو التنازل العقدي، وجاء استخدام الفعل بصيغة الماضي ﴿تَبَيَّنَكَ﴾ المسند إلى المولى عز وجل؛ يشير إلى مصدر الثبات ومورده فهو عطية ربانية خالصة، حمت النبي ﷺ من أدنى مستويات الميل نحو المشركين، بالرغم من الضغوط الشديدة، والإغراءات التي واجهته خلال الفترة المكية. وهي دلالة تؤكد أن استمرار النبي ﷺ في طريق الدعوة ليس نابعا من مجرد قوة فردية؛ "وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَكَ وَلَوْلَا تَبَيَّنَّا لَكَ وَعِصْمَتُنَا لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ لَقَارَبْتَ أَنْ تَمِيلَ إِلَى خُدَعِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، وَهَذَا تَهْيِيجٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ وَفَضْلُ تَثْبِيثٍ"¹ أي لطف رباني يهدف إلى شحن النفس وتقويتها. ومن ثم، فإن التثبيت في هذه الآية هو حماية ربانية تؤمن قلب النبي ﷺ للثبات على الدعوة.

1-2-3- تثبیت النبی ﷺ بقصص إخوانه الأنبياء: يعود سياق سورة هود فيورد مادة (ث ب ت)

في قوله تعالى ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120] لنلاحظ أن ذلك التلازم الوثيق بين التثبيت والقصص القرآني، وذلك حين تتحول الأحداث التاريخية التي أوحى الله بها إلى نبيه عن أحوال الأنبياء مع أقوامهم إلى دعمٍ نفسيٍّ للنبي ﷺ. فيردُّ الفعل ﴿نُثَبِّتُ﴾ في الفرقان؛ وها هو يتوجه إلى المؤمنين بالقرآن من أتباع النبي ﷺ حتى لا يصيبهم بلاء التشكيك الذي ينشره المشركون، فيستهدف التثبيت جميع المؤمنين، ويعزز معرفتهم، ويهدئ أفئدتهم ضد الشبهات الموجهة نحو القرآن.

ويمكن تصنيف التثبيت الوارد هنا ضمن الاستراتيجيات الدفاعية لمواجهة الحرب الإعلامية التشكيكية

المنظمة من قريش، التي تهدف إلى زعزعة الثقة في مصدر الوحي وصدق الرسالة الإلهية.

¹ - أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح: محمد جميل العطّار، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000م، ج7، ص90.

أما بالنسبة إلى الموضع الذي ورد في سورة النحل ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: 94]، فنجد أنَّ دلالاته قد تحوّلت من الجانب النفسي إلى الجانب السلوكي الحركي؛ فاستخدام المصدر (ثُبُوتِهَا) مضافاً إلى كلمة القَدَم يخلق صورةً تشبيهيةً قوية تعبر عن الاستقامة. والسياق ينبّه عن عاقبة خرق العهود والمواثيق. غير أنَّ دلالة الجذر في هذا الموضع تشير إلى أنَّ الثَّبات المطلوب من المؤمنين ليس مجرد كلامٍ عابر، بل هو ترسيخٌ للأقدام في ميادين الابتلاءات. فالزَّلُّ بعد الثَّبات دلالةٌ على التراجع والرجوع "ثمَّ نقضُ العهد سقطٌ عن درجة الإيمان يدلُّ على هذا قوله: ﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ﴾ [النحل: 94] أي العذاب"¹ ممَّا يُظهر أنَّ الثَّبات في هذه الآية يُعدُّ مرادفاً للإخلاص والاستمرار على الصَّبر مع ما يحيط من وطأة التهديد والإغراء.

وفي موضع سورة النحل نجد الجذر (ث ب ت) في قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل: 102] وقد ارتبط بمرجعية الوحي من خلال صدق روح القدس في مواجهة الافتراء الذي رَوَّجه المشركون في مكة حول القرآن، إذ قالوا: "لو كان هذا من عند الله لم يتبدل"² أي بسبب نسخ الله آية بأخرى. وجاء الفعل بصيغة المضارع المقترن بلام التعليل (لِيُثَبِّتَ) مستهدفاً جميع المؤمنين، ومعزِّزا معرفتهم، ومهدِّثاً أفئدتهم ضدَّ الشُّبهات المصوَّبة نحو القرآن الكريم. وبهذا تحوّل (التثبيت) إلى موقعٍ دفاعيٍّ لمواجهة الحرب الإعلامية المنظَّمة من قبل قريش بهدف زعزعة النِّقَّة في صدق الرِّسالة الإلهية.

1-2-4- من تثبيت الذات إلى تثبيت المنهج: يتحوّل الحديث بعد هذه المواضع إلى تناول على

صعيد لا يقلُّ أهميَّة، فيردُّ الجذر (ث ب ت) من سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ

¹ - أبو الحسن عليّ الواحدي، التفسير البسيط، تح: لجنة علمية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2009م، ج13، ص186.

² - أبو محمد بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ ج3، ص420.

مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ [إبراهيم:24] وقد خرجت دلالة الجذر في سياق الآية من تثبيت "فؤاد" صاحب الرسالة إلى تثبيت "منهج" الرسالة.

تتدرج هذه الآية ضمن سياق تقرير الحقيقة الراسخة للعقيدة، والكلمة الطيبة هي "لا إله إلا الله محمد رسول الله". وبطريقة التمثيل الحسي المقرب للمعاني؛ مثل الله تعالى الشجرة الطيبة بـ "المؤمن نفسه، إذ الكلمة الطيبة لا تقع إلا منه، فكأن الكلام: كلمة طيبة وقائلها، وكأن المؤمن ثابت في الأرض، وأفعاله وأقواله صاعدة"¹ وقد جاء الجذر بصيغة اسم الفاعل ﴿ثَابِتٌ﴾ الذي يُنسب إلى "الأصل". إنه انتقال لافت من مجال الفعل وما يعنيه من حركة (كما في سورة الفرقان "لنثبت") إلى مجال الاسم بما يدل عليه من الديمومة.

وتعتبر الآية أن الاستقامة على الحق والثبات عليه ليست مجرد حدث عابر؛ بل هي سمة ذاتية وعمق جوهري لمنهج المؤمن. حيث استخدم مصطلح ﴿ثَابِتٌ﴾ للدلالة على الثبات الذي لا يهتز أمام العواصف وهو ثبات يتجاوز لحظة زمنية تتعلق بالأفعال، ليكون صفة تلازم "الأصل". في ظل التحديات والشكوك.

يحتاج المنهج الرباني إلى هذا الوصف الذي يمنح الطمأنينة للمؤمنين، وجذور الحق التي يحملونها مغروسة في أعماق أفئدتهم. وإذا كانت الآية المذكورة في سورة الفرقان تعبّر عن (أداة) التثبيت وهي الطريقة المتدرجة في نزول المثبت الأول: القرآن الكريم؛ فإن سورة إبراهيم تمثل (الهدف) نفسه، حيث تترسخ الكلمة الطيبة، لتصبح (القاعدة الثابتة) التي تضمن قوة بناء الأمة، كما أن القوة الناتجة عن ارتباط الوصف بالثبات تدل على أن هذا المنهج لا يجب أن لا يتأثر بالواقع، ويجب أن يتراجع مع مرور الوقت. ولهذا؛ فإن الاستقرار على هذا الطريق، والصبر على ما فيه من ألم، شرط أساس ووسيلة ضرورية لـ "التثبيت"

¹ - أبو محمد بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج3، ص335.

الذي يمثله قوله تعالى: ﴿وَفَرَّغَهَا فِي السَّمَاءِ﴾. فلا يتحقق الارتفاع ولا امتلاك القوة في العلو؛ إلا إذا كان هناك ثبات ورسوخ كاملان على الأرض. وهذا يرجع بنا إلى أَنَّ التثبيت بالصيغة الاسمية (ثابت) هو الذي منح الكلمة مكانة دلالية، واكتسبت قدرة على تقديم عطاء متجدد ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ إذ إنَّ تأثيرها في واقع النَّاس والدَّعوة، يتعزَّز بقدر رسوخ أصلها في القلب، فإذا كان المسار متذبذبا غير مستقر لم يتحقق الصُّعود ولم يثمر التَّمكن أو الاستخلاف. وعليه؛ فالتثبيت يتجلَّى في مفهوم "قانون التأسيس قبل التمكن"؛ إذ إنَّ الله لا يمنح "الفرع" (السَّيادة والقدرة) إلا بعد تأكيد "الأصل" (اليقين والثبات) وذلك ليكون التمكن بناءً راسخا وليس علوا فارغا.

1-2-5- تثبيت المؤمنين بالنبي ﷺ والنُّبوة: غير بعيد عن هذا الموضع من سورة إبراهيم؛ تتحو

الدَّلالة منحى آخر، فيقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: 27] لتصل دلالة التثبيت إلى محور آخر من خلال المزج بين الفعل ﴿يُثَبِّتُ﴾ المضارع المسند إلى الله عزَّ وجلَّ، الدال على الاستمرار، وبين اسم الفاعل ﴿الثَّابِتِ﴾ للتأكيد على واقع التَّوحيد، وأَنَّهُ مركز راسخ لا يتزعزع. وذلك بعد أن مرَّ على النُّزول القرآني أعوام، واكتسبت الدَّعوة لها أنصارا، فقد أخذ التثبيت في هذا الموضع ما يتجاوز به حدود المكان والزَّمان، ليمتدَّ إلى التثبيت الأخرى الذي هو في الحقيقة امتداد للتثبيت الدُّنيوي ونتيجة له؛ فتثبيت الدُّنيا الذي سيؤسِّس لتثبيت الآخرة في الآية، وُصِفَ بأنَّه تثبيت بالقول، وجاء عقب استعراض الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، وأثره في حياة المؤمنين وبعد الممات، "وتثبيتهم به في الدُّنيا: أَنَّهُمْ إِذَا فُتِنُوا فِي دِينِهِمْ لَمْ يَزُلُّوا، كَمَا ثَبَتَ الَّذِينَ فُتِنَهُمْ أَصْحَابُ الْأُخُودِ"¹ أمَّا تثبيتهم في الآخرة فهو "أَنَّهُمْ إِذَا سُئِلُوا عَنِ تَوَاقُفِ الْأَشْهَادِ عَنْ مَعْتَقَدِهِمْ وَدِينِهِمْ، لَمْ يَتَلَعَّمُوا وَلَمْ يَبْهَتُوا، وَلَمْ تُحَيِّرْهُمْ أَهْوَالُ الْحَشْرِ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ الثَّبَاتُ عِنْدَ سُؤَالِ الْقَبْرِ"². فمواصفات المرحلة التي وصلتها دلالة (التثبيت) لحدِّ الآن هي أَنَّهُ أصبح مفهوما يعبر

¹ - محمود بن عمر الزُّمخشري، الكشَّاف، ج2، ص554.

² - المرجع نفسه.

عن قناعة راسخة، بحقيقة إيمانية صحيحة، أساسها القرآن الكريم بما قرّره من طبيعة التثبيت ومظاهره وآثاره.

كما نلاحظ أنّ تثبيت الدنيا يختلف عن تثبيت الآخرة، وإن كانا على علاقة استلزام واضحة، ممّا يمنح المؤمن سموًا إيمانيًا على واقع العذاب الذي نزل بمكّة، فإنّ كلّ ما عدا ذلك من اضطهاد يعدّ مجرد عارض زائل، وهو ما أشارت إليه الآية.

أمّا فيما يخصّ الموضوع الأخير لمادّة (ث ب ت) خلال الفترة المكيّة، فهو ما جاء من قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:39] فهو موضع يحتاج إلى تفصيل في اتجاهين يحكمهما علمان من علوم القرآن، وهو المبدأ المنهجي الذي سبق التمهيد به في التعامل مع المصطلح القرآني وفق ما تفرزه علوم القرآن من مقولات وأحكام، وهما المكي والمدني بحكم اختلاف العلماء في مكّة أو مدنية سورة الرعد، وعلم القراءات الذي يورد قراءتين لمفردة (يثبت):

فأمّا عن مكّة سورة الرعد أو مدنيّتها، فقد روى سعيد بن جبير أنّها مكّة "وقال قتادة: هي مدنية غير قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ [الرعد:31] حكاه الزهراوي، وحكى المهدي عن قتادة: أنّ السورة مكّة إلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد:31] قال القاضي أبو محمد: وقال النقّاش: هي مكّة غير آيتين؛ قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد:31] وقوله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:43]¹ وبعد استعراض الأقوال الكثيرة فيها ترجّح القول بمكيّتها فجاء في ذلك: "أنّ سورة الرعد مكّة للأدلة السابقة الذّكر، وأمّا الروايات التي مقتضاها أنّ بعض آيات السّورة مدنيات، فهي ليست إلّا مناسبات تفسير الآيات بالأمثلة، ولا يلزم أنّ

¹ - أبو محمد بن عطية الأندلسي، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج3، ص290.

تكون أسباباً مباشرة¹ ومما يدعم هذا الرأي من وجهة البحث ما ذكره صاحب التحرير والتنوير: "ومعانيها جارية على أسلوب معاني القرآن المكي من الاستدلال على الوحدانية وتقرير المشركين وتهذيبهم"² وينبغي على الخلاف حول مكية الآية أو مدنيتهما أحقية تصنيف دلالة "التثبيت" أو "الإثبات" ضمن السياق المكي أو المدني؟ وعلى القول بمكيتهما فإن مادة (ث ب ت) الواردة فيها وهي قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39] ستكون آخر لبنة في بناء دلالة التثبيت في القرآن المكي، وهو ما سنعرضه بعد إيراد القراءتين الثابنتين لمادة (ث ب ت) في الآية.

وردت للمادة في الآية قراءتان، فـ "قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَعَاصِمٌ مُحَقَّقًا، مِنْ أَثَبَّتْ يُثَبِّتُ إِثْبَاتًا، فَهُوَ مُثَبِّتٌ: إِذَا كَتَبَ. وَقَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَالْكَسَائِيُّ"³: يُثَبِّتُ مُشَدِّدًا، أَيُّ: يَتْرُكُهُ فَلَا يَمْحُوهُ" قال ابن خالويه: "وَرَأَيْتُ النُّحَوِيِّينَ يَخْتَارُونَ التَّخْفِيفَ قَالُوا: لِأَنَّ التَّفْسِيرَ مُوَافَقَةُ اللَّغَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَكَّلَ بِالْعَبْدِ مَلَكَينِ يَكْتُبَانِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ، فَإِذَا عَرَضَاهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ فِيهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ"⁴ والفعل في القراءتين بصيغة المضارع، وبالتشديد "يُثَبِّتُ" يحمل معنى التعدية، أي أَنَّ الله هو الذي يقوم بفعل التثبيت، فيثبت في ملكوته وفي أفئدة عباده ما يشاء، فيشعر المؤمنون بالطمأنينة. بينما تشير القراءة الأخرى بالتخفيف "يُثَبِّتُ" إلى التأكيد والوجود المستمر للأشياء التي أقرها الله، ولا يصح فيها محو ولا تبديل"⁵ أي هو القرار الرباني الذي يتوجب البقاء والرسوخ. وهذا التمييز بين الصيغتين يعطي مصطلح (التثبيت) في مكة مغزى قديراً، حيث يعي المؤمن أَنَّ ثباته هو نتيجة لإقرار الله للأشياء في الأزل، وأنَّ الحقَّ بحد ذاته

¹ عبد الرزاق حسين أحمد، المكي والمدني في القرآن الكريم، ط1، دار ابن عفاان للنشر والتوزيع، 1420هـ-1999م، القاهرة، مصر، ج1، ص496.

² محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984-1404هـ، ج13، ص76.

³ أبو محمد بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج3، ص317.

⁴ أبو جعفر بن خالويه الأصبهاني، إعراب القراءات السبع وعللها، تح: أبو محمد الأسيوطي، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1327هـ-2006م، ص193.

⁵ أبو محمد بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج3، ص317.

راسخٌ بتقدير ربّانيّ في اللّوح المحفوظ. وقد وصل المصطلح عند حدود نهاية الفترة المكيّة إلى أقصى درجات التجريد، حيث انتقلت صفة الثّبات من كونها حاجة إنسانية للنّبي ﷺ وللمؤمنين؛ إلى كونها خاصيّة للقدر والوحي في علم الله. وكأنّه يلخّص أركان الإيمان التي ابتدأت بالتّوحيد واكتملت بالإيمان بالقدر. ولتجميع الرؤية حول مجموع الآيات التي ورد فيها الجذر (ث ب ت) في القرآن المكي، ويتجلّى مسار نزولها حسب النّزول؛ نورد هذا الجدول بذكر السّورة ورقم ترتيبها في النّزول والآية التي ورد فيها الجذر لمعرفة سياق النّزول.

جدول يلخص الفترة المكية للجذر (ث ب ت) مرتباً حسب النّزول

ترتيب السّورة	السّورة	الآية
42	الفرقان	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: 32]
50	الإسراء	﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُزُ لِلْهِمِّ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 74]
52	هود	﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120]
70	النحل	﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 94] ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102]
72	إبراهيم	﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 24] ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27]
87	الرعد	﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39]

2- التثبيت والتّمكن في القرآن؛ ثبات اللّغة وتطوّر الدّلالة:

إذا كانت الفترة المكية قد شهدت استقرار كثير من المفاهيم اللّغوية مع إغنائها بمفاهيم دينيّة ونفسية اقتضتها سياقات الوحي في دار الابتلاء؛ فإنّ السّؤال الجوهرى الذي يطرح نفسه: هل سيظلّ نصيب الجذر (ث ب ت) في القرآن المدنيّ محصوراً على تلك المكتسبات؟ لأنّ الانتقال إلى المدينة لم يكن مجرد تحوّل مكاني، أم هل سيشهد انتقالاً من بناء التّصوّرات إلى إقامة الدّولة؟

إنّ ذلك ممّا يقتضي علينا ترشيح القول بأنّ الأصل اللّغويّ وإنّ ظلّ محافظاً على جوهره؛ إلّا أنّ دلالاته الاصطلاحية قد تتعرّض لتحوّلات جديدة نتيجةً لحركة المجتمع الجديد، وتحديات المواجهة الميدانية القادمة فما الوجهة الجديدة لهذا الجذر وفق هذه الطّروف؟

2-1- التمهيد للتثبيت الجسدي بعد التأسيس للتثبيت المعنوي: تتجلى دلالة التثبيت في سورة من

أوائل السّور نزولاً في المدينة، وهي سورة البقرة، ومع ما غلب على الفترة المدنية من تشريعات وأحكام الحياة الإسلامية الجديدة؛ ومنها تشريع الجهاد الذي لايزال الحديث عنه مبكراً؛ إلّا أنّ الإشارة القرآنية إلى موقعة داود وجالوت دعوةً ضمنية إلى التّحضير البدني لمواجهة الشّرك والمشركين، واختار القرآن الكريم أن يخرج ذلك مخرج الدّعاء، وورد فيه الجذر (ث ب ت) المذكور في الآية ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 250] ومع أنّ غاية هذا الدّعاء في طلب تثبيت الله لهم "في مداحض القتال ومزالّ النّزال، وثبات القدم عبارة عن كمال القوّة والرّسوخ عند المقارعة وعدم التّزلزل وقت المقاومة لا مجرد التّقرّر في حيّز واحد" ¹ فالمقام هنا يتناول المواجهة التي كانت بين جيش طالوت وجالوت، حيث جاء الفعل ﴿وَتَبَّتْ﴾ بصيغة الأمر الذي توجّه به داود ومن معه إلى الله في شكل طلب ممزوج بالانكسار والخضوع، طالبين التّثبيت الميداني الذي يمنع الزّلل والفرار عند اللّقاء.

¹ - أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، د ط، دار إحياء الثّراث العربي، بيروت، ج 1، ص 244.

والمراد من دلالة هذا السياق عند المؤمنين في المدينة، التلميح إلى الاشتراك في الحالة من العدد والعدة والعقيدة، والانتقال من التثبيت النفسي الروحي التي مهّدت لها المرحلة المكّية، إلى التثبيت الحسي الحركي المستند على التثبيت القلبي والروحي المنوط بالدفاع عن العقيدة في المرحلة المدنية بالجهاد.

2-2- إنفاق الأموال في رضى الله إحدى أدوات التثبيت: في موضع آخر من سورة البقرة، وفي قوله

تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:265] جاء المصطلح ﴿تَثْبِيتًا﴾ بصيغة المصدر على أنه مفعول لأجله، فهو يدلُّ على استمرارية الحدث وجريانه. فتشير الآية إلى أنّ هذا التثبيت هو تثبيت تربيٍّ للنفس من خلال العبادات المالية كالإنفاق والصدقة؛ بحيث "أنَّ نفوسَهُمْ لَهَا بَصَائِرٌ مُّتَاكِدَةٌ فَهِيَ تَثْبِيتُهُمْ عَلَى الْإِنْفَاقِ... أي: يُخرجون الزكاة طَيِّبَةً بها أنفسهم"¹ ففي ذلك تعزيز الإيمان في القلب وتقوية له ضدَّ بخل النفس وشُحِّها. وذلك شكلٌ من أشكال التثبيت الذاتي الذي يلي مرحلة التثبيت الرباني للفؤاد في مكّة، ممّا يجعل المؤمن في المدينة حريصًا على تقوية نفسه وتثبيتها من خلال الأعمال الصالحة.

فالتثبيت في هذا السياق ليس مجرد حالة عاطفية، بل يُعدُّ أثرًا حتميًا ناتجًا عن تطبيق الأحكام والعمل بالوحي. فكلُّ طاعة يؤدّيها المؤمن في المرحلة المدنية تعمل على رفع درجة الثبات لديه، ممّا يؤدّي إلى تثبيت سلوكي تراكمي، تبنى من خلاله شخصيته بناءً صلبًا لا تتزعزع أمام الشهوات.

2-3- الفرصة العملية الأولى على مسار التثبيت: شكّل ورود جذر (ث ب ت) في موضع الأنفال

نقطة مفصلية لافتة، فهذا التثبيت سبقه تحضير نفسي وإيماني طيلة الفترة المكّية بأدوات وآليات مختلفة وتقدّمه في الفترة المدنية استحضار نموذج داود عليه السلام في القلة المستضعفة، مع ما قامت عليه من

¹ - أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، ج2، ص666.

الحق والإيمان، بحيث ورد الجذر (ث ب ت) في الموضعين بالتعبير نفسه: (تثبيت الأقدام) فقال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11] يَرِدُ هذا الجذر ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بصيغة الفعل المضارع دالاً على تحقق الفعل وتجديده بتجدد المشيئة الإلهية في تلك اللحظة الحرجة. فتحمل الدلالة هنا معنى مزدوجاً وفريداً، حين تجمع بين الثبات الحسي للأقدام والأرض، والثبات النفسي في القلوب، وهو المشهد ذاته في موضع سورة البقرة.

وقد حاز جذرُ (التثبيت) في موضع الأنفال درجةً عاليةً من الدلالة كونه جاء معبراً عن سياق موقعة بدرٍ بحمولتها الإيمانية والنفسية والاجتماعية والسياسية، وصار هذا الموضعُ من أمّهات الآيات التي ورد فيها جذرُ التثبيت في الفترة المدنية، كونها تجمع بين التثبيت الحسي والنفسي، وجاء تعليقاً على مشاهد حسيّة وأسباب متتابعة سبقت موقعة يوم بدر، فقد أنزل الله المطرَ على المسلمين "قَبْلَ النُّعَاسِ، فَأُطْفَأَ بِالْمَطَرِ الْعُبَارَ، وَالتَّبَدُّثُ بِهِ الْأَرْضُ وَطَابَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ، وَتَبَتَّ بِهِ أَقْدَامُهُمْ"¹ أي أن المطرَ نزل ليهدي الرِّمالَ الثائرة ويجعل منها سطحا صلبا وثابتا يزيد من ثبات أقدام المؤمنين، ويزيل عنهم العطش، وفي الوقت نفسه طهارة للأجساد من الأحداث، وإزالة لوساوس الشيطان.

وفي الموضوع ذاته والسورة ذاتها وفي الآية التي تليها تثبيتٌ من النوع ذاته ولكن في شكل آخر، يقول تعالى من سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12] فيتجلّى معنى التثبيت من خلال استخدام صيغة الأمر ﴿فَثَبِّتُوا﴾ الموجهة إلى الملائكة، والسياق الذي قيلت فيه هو غزوة بدر. وتشير الصيغة إلى تكليفٍ غيبيٍّ يستهدف تعزيز عزائم المؤمنين في اللحظات الحرجة، ويستكمل المشهد الذي

¹ - جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ط1، دار الفكر، بيروت، 2011م، ج4، ص32.

اشتركت فيه عوامل كثيرة لإنجاح أول امتحان حقيقي لمسألة التثبيت، تشترك فيه الملائكة بأمر الله، "والتثبيت هنا مجاز في إزالة الإضطراب النفساني مما ينشأ عن الخوف ومن عدم استقرار الرأي وأطمئنانه"¹. فهو يعد تدخلاً إلهياً مباشراً لضمان تماسك الجماعة المؤمنة في خطواتها الأولى نحو التمكين، مما يبرز الترابط بين التأييد الإلهي وتحقيق النصر في الواقع.

2-4- دلالة لغوية متأخرة عن حدث مفصلي سابق: من الاستثناءات التي يصادفها جذر (ث ب

ت) في مساره نحو تجميع معانيه اللغوية ودلالاته المفهومية موضع الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال:30] الذي يستحضر صورة مؤلمة خطيرة كانت تستهدف النبي ﷺ ودعوته باستهداف شخصه ﷺ وهي إحدى تلك الأفكار التي اقترحت قبيل محاولة الاغتيال التي دبّرتها قريش لرسول الله ﷺ وهي تقييده وسجنه، وقد أعاد القرآن الكريم تناولها بعد مضي وقوعها بمدة تزيد على العامين.

والتزاماً بإجراءات المنهج الذي اعتمده البحث؛ فإن هذا الجذر (ث ب ت) في هذا الموضع، سيق في سورة مدنية معلقاً على حدث وقع في سياق مكّي خطير. ففي مواجهة مكر الأعداء وخداعهم؛ يظهر شكل قبيح من أشكال التثبيت السلبي في هذه السورة، وهو قوله تعالى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾. وقد ذكر ابن عباس في معناه: "لِيُثْبِتُوكَ وَيَشُدُّوكَ، وَكُلُّ مَنْ شُدَّ فَقَدْ أُثْبِتَ، لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْحَرَكَةِ"² وجاء بصيغة الفعل المضارع المنصوب بلام التعليل الذي يدل على التقييد والحبس. فيظهر لنا في هذا المقام سعي الكفار لإعاقة حركة صاحب الرسالة وحرمانه من التمكين، ولكن القرآن يبين أن إرادة الله في تثبيت دينه تفوق بكثير إرادتهم في الحبس والتقييد الجسدي.

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج9، ص281.

² - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000م، ج15، ص477.

وما زلنا في السورة نفسها (الأنفال) مع ما ورد في موضع آخر للجذر (ث ب ت) في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45] بصيغة فعل الأمر ﴿فَاثْبُتُوا﴾ من الفعل الثلاثي ثَبَتَ. وهنا تنتقل الدلالة الصرفية من فعل الدُّعاء إلى فعل التَّكليف؛ "فإنَّ الأمر بالثَّبات هو في حال السَّعة، والرُّخصة هي في حال الضَّرورة، وقد لا يحصل الثَّباتُ إلَّا بالتَّحرُّف أو التَّحْيِز" ¹ بحيث يجعل المسؤولية على عاتق الجماعة المؤمنة. ويحوِّل الثَّبات إلى خيارٍ واسعٍ ومقصود عند مواجهة العدو.

ومرُدُّ الجذر هنا إلى (الثَّبات) الحاصل بفعل (التَّثبيت) وهو من العزيمة والصَّبر في المواجهة الذي يمنع الانهيار في الدَّولة النَّاشئة، ونتيجة ناشئة عن مراحل من التَّثبيت النَّفسي الذي اكتسب في مكَّة إلى انتصارٍ عمليٍّ محقَّق في الفترة المدنية.

5-2- اقتداءً بسلوك السابقين في الباطن والظاهر: يطلُّ علينا موضع الجذر (ث ب ت) في سورة آل عمران، في سياق نكبة أُحُد التي كانت بعد نصر بدرٍ بعامٍ واحد، ويتكرَّر ذكرُ الجذر في مقام الاقتداء بمن ثبت مع الأنبياء، والذي تقدَّم الحديث عنهم في قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِثْيُونًا كَثِيرٌ مَّا وَهَنُوا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146-147] فذكَّركم بحال سابقةٍ في الأقوام مع أنبيائهم شبيهة بحالهم، وأمرهم بالاقْتداء، مذكِّراً إياهم بما يجب من حال القلوب والأجساد في مواقف متشابهة، والختام بالدُّعاء الممزوج بنبرة الاستغفار والتَّوبة والنَّدَم على صنيع المؤمنين يوم أُحُدٍ وهو أحدُ أكبر الامتحانات التي قيسَت فيها درجة حضور الثَّبات في القلوب، والتَّوجيه الذي قُصِد به المؤمنون بعد أُحُدٍ، وما يشرع لهم ولو بعد الهزيمة المؤقتة، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 147]

¹ - محمد صديق خان القنوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، تح: عبد الله الأنصاري، د ط، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1992م، ج5، ص188.

قال الزمخشري: "وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم، حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان"¹. فنجد أن الجذر (ث ب ت) تكرّر بصيغة فعل الأمر ضمن مقام الإشادة بالربانيين الذين خاضوا القتال مع الأنبياء دون أن يضعفوا. وفيه تعنيف شديد للمؤمنين بعدم التراجع أو التردد، فذلك ممّا يهدّد البناء المتراكم لمفهوم الجذر (ث ب ت) الذي قطع القرآن الكريم في تشكيله مراحل وأعواما، وهو ما يدعم معنى التثبيت اليقيني والعسكري معاً؛ فالتثبيت المدني في هذا السياق هو النتيجة التطبيقية لعملية بناء العقيدة المكّية، حيث يلتمس من المؤمن الاستمرار والصمود أمام مواجهة الصعوبات الكبرى للدولة الناشئة.

2-6- ظاهرة النفاق تهدّد مفهوم التثبيت الناشئ: وفي سورة النساء تظهر دلالة التثبيت التشريعي

في الآية في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ [النساء: 66] حيث جاء الجذر (ث ب ت) في قوله: ﴿تَثْبِيثًا﴾ مصدرا، وهو تمييزٌ للاسم التفضيل "أشد" فالدلالة في هذا المقام تبين لنا أن تأثير الطاعات والامتثال للأوامر هي الأساس الحقيقي للثبات، ويظهر ذلك في قول النبي ﷺ "الإيمانُ أثبت في قلوب أهلِهِ من الجبال الرواسي"² فشبه النبي ﷺ الإيمان بالجبال الثابتة في الأرض وكيف يستقر في القلوب، ممّا يدلّ على استقرار العقيدة، وعدم ترعرعه أمام الشكوك ولا يتغيّر بسبب المغريات.

¹ - محمود بن عمر الزمخشري، الكشف، ج1، ص 424.

² - أخرجه ابن أبي حاتم.

فالتثبيت في هذا السياق ليس مجرد حالة عاطفية؛ بل يُعدُّ أثراً حتمياً ناتجاً عن تطبيق الأحكام والعمل بالوحي. فنلاحظ أنَّ كلَّ طاعة يؤدِّيها المؤمن في المرحلة المدنية تعمل على رفع درجة الثبات لديه، ممَّا يؤدِّي إلى تثبيت سلوكي تراكمي، فتبنى شخصيته بناءً صلباً لا يتزعزع أمام الشهوات.

7-2- نصره تقابلها نصره؛ والتثبيت زيادة: بالانتقال إلى الموضع الذي ورد في سورة محمد الجذر

(ث ب ت) في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:7] جاء الجذر (ث ب ت) بصيغة الفعل المضارع ﴿وَيُثَبِّتْ﴾ المجزوم لوقوعه جواباً للشرط. وأنَّجته دلالة الصرفية نحو معنى التَّجَدُّد والاستمرار المرتبط بدوام نصره المنهج الإلهي؛ بحيث أنَّ التثبيت في هذه الآية لا يقتصر على الثبات الجسدي فقط، بل يتضمَّن أيضاً تثبيت أركان المجتمع المؤمن واستقراره.

فربط التثبيت بالأقدام في هذا المقام، أي في مرحلة متقدِّمة من الفترة المدنية بخصوصياتها التشريعية والتكليفية، يُبرز بوضوح تلك الملامح الأولى للتَّكْمِين في الأرض، منها ما هو من الثبات الميداني، حين تغدو الأقدام الراسخة دلالة على السيادة وعدم التزعزع أمام القوى المعادية؛ والتثبيت في هذا الحالة من الله عز وجل: "قوة وشجاعة في حال القتل، وعند مباشرة جميع الأعمال"¹ ومنحة للمؤمنين سبقت لها تهيئة وإعداد، وتحتاج الآن إلى رعاية وصيانة.

8-2- التثبُّت جهادٌ أخلاقي يؤمِّن الجبهة الداخلية في المجتمع: وفي موضع سورة الحجرات يردُّ

الجذر (ث ب ت) بجمولته اللغوية القديمة، ولكن بجمولة مفهومية أخرى، نابعة من منظومة الأخلاق القرآنية الجديدة التي يعمل النزول المتدرج للقرآن الكريم على ترسيخها سلوكاً عاماً في المجتمع الجديد فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:6]. وهو موضعٌ يحتاج إلى مزيد تفصيل.

¹ - برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح: محمد عبد المعيد خان، ط1، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، 1984م، ج18، ص209.

وردت في الآية قراءتان، فقرأ حمزة والكسائي: (فَتَنَبَّئُوا) من التَّنَبَّأ، وقرأ الباقون (فَتَنَبَّئُوا) ومعنى قوله تعالى: (فَتَنَبَّئُوا) أو (فَتَنَبَّئُوا) أي: فاستظهروا صدقه من كذبه بطريق آخر¹ أي: في الأخبار. فالتثبت في هذا السياق يركز على التروّي والتحقق من الخبر قبل بناء المواقف. وقراءة حمزة والكسائي: "فَتَنَبَّئُوا وبالنَّاء والثَّاء، من الثَّبات، وهو أبلغ في المعنى؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَتَنَبَّأ ولا يَنْبَيُّ، وإذا تَبَيَّنَ فقد تَنَبَّأ² وهو ما يجعل التَّنَبَّأ - بهذا العرض - جهادًا معرفيًا وأخلاقيًا.

إنَّ هذا النوع من التَّنَبُّبِ يضمن سلامة الهيكل الداخلي للمجتمع. فكما أنَّ الحفاظ على الثَّبات في مواجهة النِّحْدِيَّات الخارجية يحمي الدَّولة من المخاطر؛ فإنَّ التَّنَبُّبَ في الأخبار يحميها من الفتن الدَّاخلية وشُرور الانقسامات والنَّهْم. وبذلك يتحقَّق توازنٌ يضمن استقرار الدَّولة واستمرار قوَّة المجتمع.

جدول يلخص الفترة المدنية للجذر (ث ب ت) مرتبًا حسب النُّزول

ترتيب السُّورة	السُّورة	الترتيب
87	البقرة	﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 250] ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْتِ سَبْعَ سُنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261]
88	الأنفال	﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغُصَاثُ مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11] ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنْتِ مَعَكُمْ فَتَنَبَّئُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَرَّعَبَ فَأَضْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12] ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: 30] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبِتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]

¹ محمد أحمد إسماعيل المقدم، تفسير القرآن الكريم، دروس صوتية مفرغة. موقع الشبكة الإسلامية، ج136، ص2.

² أحمد بن أبي بكر الجبلي، البستان في إعراب مشكلات القرآن، تح: أحمد محمد عبد الرحمن الجندي، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1439هـ-2018م، ج1، ص48.

89	آل عمران	﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 147]
92	النساء	﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ [النساء: 66]
95	محمد	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7]
107	الحجرات	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6] قرأ حمزة والكسائي: فَتَتَّبِعُوا وقرأ الباقون: فَتَبَيَّنُوا.

وخلاصة أمر هذا الجذر الذي بدأ مفردة وردت في سياق تثبيت (الفؤاد) في مواجهة التّكذيب، وتدرّجت حتّى وصلت إلى تثبيت (المنهج) في وعي الجماعة المؤمنة؛ ممّا يكشف لنا عن رؤية تجعل من استقرار الفكر العقدي ركيزة أساسية للوصول إلى مرحلة الاستواء والتّمكن الحضاري. ويتحوّل التّثبيت إلى (واقع وتشريع)، يضبط ملامح الأمة المستخلقة.

الفصل الثاني

التَّامِكِينَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛

اِكْتِمَالِ مَعَانِي الْاِسْتِعْمَالِ

بعد الانتهاء من استعراض مادّة (ث ب ت) ومتابعة تجلّياتها التي شكّلت قاعدة التّأسيس في الوجدان القرآني؛ ننقل في هذا الفصل إلى تتبّع مادّة (م ك ن)، باعتبارها النّتيجة الحتمية المفترضة لما سبق به مصطلح التّثبيت، والمآل الاستراتيجي لعملية التّثبيت. وسنتبع المنهجية نفسها التي اعتمدنا عليها في معالجة الجذر (ث ب ت) وهي ترتيب الآيات حسب النّزول، وذلك لرصد الصيرورة التي اكتسب بها المصطلح دلالاته السياقية الدّاخلية منها والخارجية، والغاية من هذا الفصل هو الكشف عن الكيفية التي انتقل بها الجذر (م ك ن) من مجرد أصل لغويّ يشير إلى الاستقرار الماديّ، إلى مفهوم محوريّ يعبر عن السّيادة والفعل الحضاري.

وسنحاول من خلال هذا التتبّع رصد نقاط التماس بين مفهوم (التّثبيت) باعتباره مساراً بنائياً، ومفهوم (التّمكن) باعتباره مآلاً لهذا المسار، وصولاً إلى اللّحظة التي يكتمل فيها المعنى في ختام النّزول المدنيّ، حيث يلتقي ثبات العقيدة بتمكن المنهج.

1- حضور مادّة (م ك ن) في القرآن المكيّ؛ من دلالة اللّغة إلى المفهوم القرآني: تعتبر مادّة (م ك ن) في الفترة المكيّة بمثابة الوعد الغيبيّ والمصير الاستراتيجي الذي تشكّلت ملامحه في سياق الاستضعاف؛ إذ انتقل من دلالاته اللّغوية التي تعني القدرة والسّيطرة والثّبات في المكان، لتصبح في المفهوم القرآنيّ مفهوماً مركزيّاً يربط بين الصّبر العقديّ والسّيادة المستقبلية.

ولم تكن الغاية من متابعة الآيات المكيّة لهذا الجذر إثبات تمكين واقعيّ آنذاك؛ وإنّما جاءت لترسيخ عقيدة التّمكن في قلوب المؤمنين، وبناء الفهم الدّهني بأنّ التّمكن هو نعمة ربّانية تتطلّب تحقيق شروط الثّبات. وبهذا، تُشكّل مادّة (م ك ن) مكيّاً محرّكا دافعا يمنع اليأس، ويمنح المؤمن القدرة على رؤية النّصر من قلب المحنة.

1-1- مسار مادّة (م ك ن) في اكتساب الدّلالة المعجمية: استقرّت دلالة الجذر (م ك ن) في القواميس العربية على قاعدة حسّية متينة، ممّا يجعل من الاستقرار في الموضع جوهرّاً ثابتاً تتفرّع عنه بقية

المفاهيم، فالمفردة في أصل وضعها اللُّغوي لا تتفكُّ عن معاني الحفظ والإحكام والصُّون، وهي معانٍ انتقلت تدريجيًّا من المجال المادِّي الملموس (كأعشاش الطَّير وبيض الضَّبَاب) إلى مجالاتٍ أكثر تجريدًا تتعلَّق بالمنزلة والقدرة والاستطاعة. وإنَّ فهم هذا الرِّابط الدَّلالي بين الحسِّي والمجرَّد يُعدُّ مدخلًا ضروريًّا لإدراك دقَّة الاستعمال القرآني للمصطلح، وكيفية توظيفه لخدمة مقاصد الاستخلاف.

ورد في لسان العرب في مادة (م ك ن): "المَكْنُ والمَكْنُ بأنَّه بيضُ الضَّبَّةِ والجرادة وتَحْوَهُمَا"¹ وهو شرحٌ يحيل من أوَّل ما يحيل على أنَّ أصل الجذر يحمل دلالة حسيَّة خالصة، إذ يشير إلى شيء مادِّي ملموس يمكن إدراكه بالحواس، وهو البيض. ويكشف هذا الاستخدام عن دلالة أعمق تتمثَّل في الاجتماع والاستقرار في مكان واحد معيَّن، باعتبار أنَّ البيض يكون في مجموعة مستقرَّة داخل البطن، ثمَّ أصبحت الحالة تُسمَّى مَكُونًا. وقد ورد هذا الجذر بصيغ صرفية متعدِّدة تدور جميعها حول معنى واحد عام هو الاجتماع والاستقرار، فمنها "المَكْنُ والمَكْنُ... ومَكْنَةٌ ومَكْنَةٌ... ومَكْنَتْ، وأمَكْنَتْ، ومَكُون"². وهو شأن أكثر معاني الألفاظ العربية التي تتأسَّس على معانٍ حسيَّة، ثمَّ يتحوَّل بها الاستخدام اللاحق لمعانٍ ودلالات أكثر تجريدًا. مثل: التَّمَكِين والاستقرار والقدرة؛ كما يكشف عن أشكال انتقال الدلالة من المجال المادِّي الحسِّي الملموس إلى المجال المعنوي المدرك بالذَّهن.

وضمن هذا الخاصية اللُّغوية التي ميَّزت أشكال الدلالة العربية؛ تتَّضح بداية الجذر (م ك ن) في طريقة اكتسابه الدلالة المعجمية، إذ بدأ بقاعدة حسيَّة أوَّلية، ثمَّ اتَّسعت دلالته باشتقاقاته لتشمل معاني جديدة حسيَّة ومجرَّدة. ولعلَّ أبرز المعاجم في الإشارة إلى هذا، هو معجم مقاييس اللُّغة، فقد تناول جذر (م ك ن) مضيفًا على المَكْن وهو بيض الضَّبِّ، استعمالًا آخر، فيقول: "والمَكْنَاتُ: أَوْكَارُ الطَّيْرِ، وَيُقَالُ

¹ - جمال الدِّين بن منظور، لسان العرب، ج2، ص412.

² - المرجع نفسه، ج1، ص498.

مَكْنَات¹ وهذا تعبير يشير إلى شيءٍ حسيٍّ ملموس، فيدلُّ على أماكن بذاتها، وهي أعشاش الطيور التي تأوي إليها وتستقرُّ فيها.

يكشف هذا الاستخدام عن توسيع المعنى الحسي للجزر، حيث يضيف إلى ثبات الشيء داخل البطن (كما هو الحال في بيض الصَّب) ثباته في موقع خارجيٍّ مُعدِّ له، مثل أعشاش الطيور، غير أنَّه لا يخفى اجتماع هذه الدلالات الحسية المتنوعة، فتلتقي عند مفهومٍ كليٍّ جامعٍ هو: التمكن والاستقرار في مكانٍ محدّدٍ، وهذا ما يشكّل الأساس الذي تنبثق منه الدلالات المجردة كمعنى التمكن والقُدرة والثبات.

ومع السَّير في الزَّمن لم يقتصر الجزر (م ك ن) على هذه المعاني فامتدَّ ليشهد تنوعاً دلالياً لافتاً وتبيّن ذلك من خلال ما وثَّقه معجم الزبيدي من دلالة، فجاء فيه قوله: "المَكِينَةُ: التَّمَكُّنُ² والمُكْنَةُ: القُدرة والاستطاعة³ والمكانة هي المنزلة عند المَلِكِ"⁴ وهي معانٍ تُعبّر عن القوّة والرُّسوخ. و"التمكن عند الصوفية مقامُ الرُّسوخ والاستقرار على الاستقامة"⁵.

وبعد هذه المتابعة للجزر (م ك ن) في جملة من المعاجم، نقف على أنَّه قد شهد تحوُّلاً دلالياً من المجال الحسيّ إلى المجرد في مواضع مختلفة، ولكن مع الحفاظ على جوهرٍ دلاليٍّ موحدٍ يتجلّى في الثبات والاستقرار.

1-2- مسار (م ك ن) في القرآني المكيّ: بعد الحصيصة اللغوية التي حصَّلتها الجزر (م ك ن) عبر مسيرته المعجمية؛ سنتحوّل بهذه الحصيصة اللغوية لنتابع حضور هذا الجزر في القرآن المكيّ معتمدين ما أسلفنا من متابعة حضوره حسب ترتيب النُّزول، انطلاقاً من أنَّ ذلك كفيل بالوقوف على التدرُّج الدلالي

1- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج5، ص344.

2- محمّد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، د ط، دار الهداية، الكويت، 2001م، ج36، ص188.

3- المرجع نفسه، ص192.

4- المرجع نفسه، ص189.

5- المرجع نفسه، ص192.

والمفهومي الذي حصّله هذا الجذر. مع الأخذ في الاعتبار تلك الحصلة المفهومية التي جمعها مصطلح (التثبیت) بمشتقاته خلال الفترة المكيّة، وسيتحرّك البحث بعد ذلك في اتّجاهين: يشغل أحدهما على متابعة المصطلح المُساند (م ك ن) خلال الفترة المكيّة، لنقف على مدى حضور الدلالة المفردة لهذا المصطلح في القرآن المكيّ من جهة، وهل من علاقة بينه وبين مُسانده (ث ب ت) الذي سبق استعراض حضوره. بينما يشغل ثانيهما على متابعة استمرار حضور مادّة (ث ب ت) في القرآن المدنيّ، ليلتقي استواء المفهومين معا في نهاية المطاف مع المعاني التي حصّلتها كلا المصطلحين في نهاية المرحلة المدنية.

(ث ب ت) في القرآن المكيّ (ث ب ت) في القرآن المدنيّ

(م ك ن) في القرآن المكيّ (م ك ن) في القرآن المدنيّ

1-2-1- دلالة المكانة لرسول الوحي جبريل عليه السّلام: تنطلق دلالة الجذر (م ك ن) في السّور

المكيّة مع نزول سورة التّكوير، متأثرة بأصلٍ حسيّ تناولته المعاجم الذي يدلّ على الاستقرار والثّبات، وذلك قبل توسّع الدلالة. فقد جاء الجذر في سورة التّكوير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ 19 ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التّكوير: 19-20] بصيغة الصّفة المشبّهة باسم الفاعل، في دلالة واضحة على الثّبات والاستقرار في الصّفة. ويظهر سياقُ النّزول مظاهر التّعظيم والتّشريف والإجلال لرسول السّماء إلى الأرض: جبريل عليه السّلام، والمعنى الذي ساقه المفسّرون للمفردة في سياق الآية قولهم: "أي بالغُ المُكَنَّةِ عنده عظيمُ المنزلة جدّاً، بليغ فيها، فهو بحيث لا يتأتّى منه تفريطٌ ما في إبلاغ شيءٍ ممّا أرسل به" أي: يبلغ الرّسالة دون إهمال أو عجز أو إخلال. فمنحت لفظة (مكين) معنى العلوّ في المنزلة والرّفعة والقُرب من ربّ العرش العظيم، وليس السّيطرة الجسدية على الأرض؛ ممّا يجعل النّاس يتلقون رسالته. الله بالقبول الذي يتنزّل به مصداقيةً مستمدّة من منزلة حامله. وهو البعد الذي حرص مصطلح (التثبیت) على استحضاره في سياق دفع شكوك المشركين عن الوحي وردّ افتراءهم على من أنزل عليه ﷺ.

¹ - برهان الدين البقاعي، في تناسب الآيات والسّور، ص 239.

1-2-2- الرّحم وأوّل مظاهر الاستقرار في المكان: يتحوّل استخدام المصطلح في سورة المرسلات

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ 20 فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: 20-21] للإشارة إلى الرّحم بصفة (مكين) وهو صفة لمكان القرار. فالدلالة اللغوية تشير إلى الحفظ والتحصين والإحكام؛ لا يُعدّ الرّحم حاوية جسدية فقط؛ بل هو مكان مهيباً بشكل مناسب. قال الشيخ ابن عاشور: "وَالْقَرَارُ: مَحَلُّ الْقُرُورِ وَالْمُكْنِ. وَمَكِينٌ: صِفَةٌ لِقَرَارٍ، أَيْ مَكَانٍ مُتَمَكِّنٍ فِي ذَلِكَ فَهُوَ فَعِيلٌ مَنْ مَكَّنَ مَكَانَةً، إِذَا ثَبَتَ وَرَسَخَ. وَوُصِفَ الْقَرَارُ بِالْمَكِينِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ، أَيْ: مَكِينُ الْحَالِ وَالْمُسْتَقَرِّ فِيهِ. فَالتَّقْدِيرُ: مَكِينٌ فِيهِ. وَالْمُرَادُ بِالْقَرَارِ الْمَكِينِ: الرَّحِمُ"¹ فالتمكن هنا دلالة على الاستقرار الكامل الذي يضمن ديمومة الحياة في أضعف حالاتها.

1-2-3- التمكن في الأرض في سياق المنّة بالاستقرار في المكان: وفي الموضع الذي ورد في

سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10] نلاحظ اتساع مفهوم التمكن لتشمل دلالاته منح الإنسان وسائل الاستقرار والعيش في الأرض؛ حيث جاء الفعل "مَكَّنَّاكُمْ" بصيغة الفعل الماضي المسند إلى الضمير "نا" المتكلمين، ليعبر عن الاعتراف بنعمة ربانية سابقة على وجود البشر. وتُظهر صيغة الفعل وسياق الآية الإشارة إلى تذليل الأرض وجعلها ملائمةً وصالحةً للاستقرار، "أَي: جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَكَانًا وَقَرَارًا، وَمَكَّنَّاكُمْ فِيهَا وَأَقْدَرْنَاكُمْ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيهَا"². فيعدّ التمكن في هذا الموضع حُجَّةً على المشركين؛ فالله منحهم القدرة في الأرض وزاد من أرزاقهم؛ لكنهم في غالب الأحيان لا يشكرون. ولهذا يربط الله التمكن بواجب العبادة والشكر.

1-2-4- التمكن في الأرض مراد الله لعباده: أمّا فيما يخصّ الموضع الذي ورد في سورة القصص

في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ 5 وَنُكَفِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 5-6] فجاء الفعل "وَنُكْمِّنَ" بصيغة المضارع ليضيف دلالة الاستمرار والوعد الربّاني

¹ - محمّد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 29، ص 431.

² - فخر الدّين الرّازي، مفاتيح الغيب، ج 14، ص 204.

القوي الذي يتخطى الظروف المادية الصعبة. فيتحدث السياق في هذه الآية عن قوم بني إسرائيل في زمن استضعافهم على يد فرعون، لكن المعنى موجّه لمؤمني مكة بشكل غير مباشر؛ فإله الذي يُمكن المستضعفين في الأرض هو قادرٌ على تحويل ضعفهم إلى قوّة وزعامة. "فيرون من هذه الطائفة المستضعفة ما كانوا يخافونه من هلاكهم وذهاب ملكهم"¹ والمقصود من (التمكن) في هذا الموطن مرادفٌ لتغيّر موازين القوى، وتحويل الجماعة المؤمنة من وضعية الخوف إلى وضعية التغلب.

1-2-5- البلد الحرام تمكينٌ قدرِيّ خالدٌ: وفي موضع آخر من سورة القصص، في قوله: ﴿وَقَالُوا

إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 57] تم استخدام الصيغة الفعلية في سياق الاستفهام التقريري، وذلك من أجل الردّ على مخاوف أهل مكة من اتباع الهدى. فالدلالة هنا هي تأمين الحرم كمساحة مستقرّة ومحميّة بفضل معجزة ربانية قديمة؛ فلذلك كان ينبغي أن يكون هذا التمكن في الحرم حافزاً للإيمان وليس عائقاً له، فالله هو الذي منحهم القوّة في الحرم، ومنحهم الثّمار، وله القدرة على حمايتهم إن اتّبّعوا طريق الهدى. غير أنّ المشركين "قالوا إن نتبع هذا الإسلام الذي جئت به ينتزعنا أعداؤنا من أرضنا بسرعة، أولم نمكّن لهؤلاء المشركين حرماً يحرم فيه سفك الدماء والظلم، يأمنون فيه من إغارة غيرهم عليهم"² فالتمكن في الآية يعني ما من الله على عباده من نعمة الأمن السياسي والغذائي الذي عرف به الحرم المكيّ. وهو المعنى بعينه الذي ورد بعينه في موضع الأعراف.

1-2-6- تمكين الصالحين جائزة وتكليف: وبالاتقال إلى الموضع الذي ورد في سورة يوسف:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

¹ - لجنة علمية من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ط2، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، 2009م، ج1، ص386.

² - جماعة من علماء التفسير، المختصر في التفسير القرآن الكريم، ط3، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، 2015م، ج1، ص392.

يَعْلَمُونَ ﴿يوسف:21﴾ يظهر لنا الفعل بصيغة الماضي المسند إلى "نا" العظمة، للدلالة على تدبير ربّاني خفيّ. فدلالة التمكن في هذه المرحلة ليست بلوغ منصب سياسي؛ بل هي تمكينٌ أمنيّ ومعيشيّ ليوسف عليه السلام "بِحُلُولِهِ مَحَلَّ الْعِنَايَةِ مِنْ عَزِيزٍ مُّصْرَ، فَذَ حَطَّ لَهُ مُسْتَقْبَلُ تَمَكُّنِهِ مِنَ الْأَرْضِ بِالْوَجْهِ الْأَتَمِّ"¹ بإخراجه من غيابات الجُبِّ والانتقال به من حال العبودية إلى حال متقدّمة من الإكرام والرعاية.

وفي هذا السياق يتبيّن أنّ الله قد يُمكن لعباده وسط المحنة طرقاً غير متوقّعة تهيئاً لتمكين أكبر. وهو المعنى الذي أحال على الجزء الثاني من التمكن الذي عرضه موضع سورة يوسف الثاني: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:56] وقد جاءت صيغة الجذر صفةً مشبّهةً لوصف المكانة التي بلغها يوسف عليه السلام عند عزيز مصر. إذ أنّ الدلالة تشير إلى ثبات القدم في النّقة وحسن الإدارة؛ كيف لا والعزيز قد "استخلصه واستخصه، إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به"² ومقرّباً إليه. ويتّضح من السياق أنّ التمكن يدلّ على نفاذ الكلمة واستلام الصّلاحيات نتيجةً للمعرفة والأمانة. فهي رسالةٌ لسكّان مكّة بأنّ المكانة الرّفيعة والقيمة الجوهرية لا تؤخذ بالخداع، وإنّما تتحقّق بتمكين قائمٍ على القدرة الدّاتية.

ولعلّ هذا المعنى هو المراد من التّدريج بتمكين النّبي يوسف عليه السلام، إذ أعاد القرآن الكريم إيراده في هذا الموضع من سورة يوسف، وقد جاء الفعل بصيغة الماضي مجدّداً ليعبر عن تحقّق الهدف النّهائي للتمكن الأرضي؛ الذي هو "عبارةٌ عن كمال قدرته ونفوذه أمره ونهيّه، حتّى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره، وصار الملّك يصدر عن رأيه، ولا يعترض عليه في كلّ ما رأى، وكان في حكم التّابع، وصار النّاس يعملون على أمره ونهيّه"³. فالدّلالة في هذا الموضع تشير إلى الحرّية المطلقة في الحركة واتّخاذ القرارات، بعد

¹ - محمّد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج12، ص247.

² - محمود بن عمر الزّمخشري، الكشّاف، ج2، ص481.

³ - محمّد صديق خان القنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن، ج6، ص77.

التَّعْيِيدُ الْكَامِلُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ التَّمَكِينِ يُظْهِرُ الْجَانِبَ الْمَادِّيَ لِلْمَصْطَلَحِ؛ بِحَيْثُ يَتِمُّ التَّخْلُصُ مِنْ جَمِيعِ الْعَوَاقِقِ وَتَفْتَحُ جَمِيعُ الْمَسَالِكِ. وَالتَّمَكِينُ هُنَا ثَمَرَةُ التَّقْوَى وَالصَّبْرِ الَّذِي تَخْلَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ التَّنْبِيهِاتِ.

1-2-7- التَّمَكِينُ فِي الْأَرْضِ تَمَامَ نِعْمَةٍ وَبَدَايَةِ نِقْمَةٍ: وَبِالانتقالِ إِلَى الْجَذْرِ (م ك ن) الَّذِي وَرَدَ

فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ؛ نَقْفَ عَلَى صِيغَتَيْنِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَّكُمْ﴾ [الأنعام:6] فَالْأَوَّلُ ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾ جَاءَ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمَاضِيِّ الْمُسْنَدِ إِلَى "نُونِ" الْعِظَمَةِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَحَقُّقِ التَّمَكِينِ الْكَامِلِ غَيْرِ الْمُقَيَّدِ بِأَيِّ شَرَطٍ أَوْ قَيْدٍ. وَالْأَقْرَبُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ ذَلِكَ التَّمَكِينُ الْمَادِّيَ الْمُتَكَامِلَ الَّذِي وَصَلَ إِلَى ذُرْوَتِهِ فِي الْقُدْرَةِ وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى الْمَوَارِدِ وَالْإِمْكَانِيَّاتِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ الْعَيْشَ بِكَرَامَةٍ، مِنْ أَرْضٍ وَمَالٍ وَسَائِرِ أَسْبَابِ الْإِسْتِقْرَارِ.

أَمَّا الْفِعْلُ الثَّانِي الَّذِي وَرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَمْ نُمَكِّنْ﴾ فَقَدْ جَاءَ بِصِيغَةِ الْمَضَارِعِ الْمَجْزُومِ بِـ"لَمْ" دَالًّا عَلَى عَدَمِ الْإِسْتِمْرَارِ أَوْ عَدَمِ بُلُوغِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ دَرَجَةَ الْقُوَّةِ نَفْسَهَا الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا الْأَقْوَامُ السَّابِقَةُ وَرَغْمَ مَا تَقَرَّرَ مِنْ قُوَّةِ قَرِيشٍ وَبِطْشِهَا بِالْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ تَمَكِينَهَا نَسْبِيًّا، وَأَنْهَا لَمْ تَصِلْ إِلَى أَدَوَاتِ تَمَكِينِ مَادِّيٍّ سَبَقَتْ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَهُمْ. وَلِذَلِكَ فَاللَّهُ "قَادِرٌ" عَلَى أَنْ يُنْشِئَ مَكَانَهُمْ¹ قَوْمًا "آخِرِينَ يَعْمُرُ بِهِمْ بِلَادَهُ"²، أَيْ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُغَيِّرَهُمْ بِأَقْوَامٍ آخَرِينَ، وَهُمْ عَلَى مَا يَظُنُّونَهُ مِنْ قُوَّتِهِمْ لَا يَعْجِزُهُ تَعَالَى. وَتَجَلَّى الْمَعْنَى الْخَفِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي تَحْطِيمِ كِبَرِيَاءِ الْمُشْرِكِينَ؛ فَيُشِيرُ الْفَارِقُ الدَّلَالِي بَيْنَ الْفَعْلَيْنِ إِلَى أَنَّ التَّمَكِينَ لَيْسَ دَائِمًا عَلَامَةً عَلَى رِضَى اللَّهِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ تَمَكِينٌ اسْتِدْرَاجًا. فَإِذَا كَانَتْ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ عَلَى تَمَكِينٍ عَظِيمٍ قَدْ دُمِّرَتْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهَا؛ فَإِنَّ قَرِيشًا الَّتِي لَمْ يَبْلُغْ تَمَكِينُهَا جِزَاءً مِنْ تَمَكِينِهِمْ، أُولَى بِالْخَوْفِ وَالْإِعْتِبَارِ.

¹- محمود بن عمر الزُّمَخْشَرِيُّ، الْكُشَافُ، ج2، ص6.

²- الْمَرْجِعُ نَفْسَهُ.

كما يلاحظ أنَّ الفعل "مَكَّنَاكُمْ" يدلّ على وفرة العطاء، في حين أنَّ نفي المضارع "لَمْ نُمَكِّنْ" يدلّ على عجز القوّة البشرية مقارنةً بالقدرّة الربّانية؛ وهذا ما يدعم فكرة حقيقة التمكن الحقيقي الذي يتطلّب تثبيتاً عقدياً لضمان ديمومته.

1-2-8- كمال الرعاية والتّغريب في جمال النّهاية: ينتقل الجذر (م ك ن) الوارد في سورة الصّافات

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيِّضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصّافات:49] لوصف الجمال وصفًا غيبيًا، وقد جاء بصيغة اسم المفعول ﴿مَكْنُونٌ﴾ إذ أنَّ الدّلالة اللّغوية تعني: الجوهر المصون¹، أي: الحفظ الكامل للشيء والسّتر. حيث تمّ استخدام التّشبيه في وصف نعيم الجنّة، فقورنت الحورُ بالبَيّض المحفوظ في قشره، الذي لم تتعرّض له الأيدي، ولم يتأثّر بعوامل التّغيير، ممّا يخلُق صورةً تجمع بين النّقاء والجمال والعناية. فالتّمكن هنا تمكينُ جمالٍ وقيمةٍ في وعاءٍ مُحكّم، بعيدًا عن مظاهر الابتذال.

وهذا النّوع من التّمكن يشير إلى الصّيانة والسّتر؛ وعليه فإنّ مفهوم التّمكن في هذا السّياق لا يرتبط بالقدرّة أو السّلطة؛ بل يعود إلى معناه اللّغويّ الأصلي الذي يعني الحفظ والإحكام والصّون.

1-2-9- تمكين الاستدراج؛ مشهد وعاقبة: وفي موضعٍ من سورة الأحقاف ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا

إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف:26] ورد الجذر (م ك ن) مرّتين: ﴿مَكَّنَّهُمْ﴾ و ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾ بصيغة الماضي، فنجد تكرارهما للتأكيد على أنّ الله منح الأمم السّابقة (كقوم عاد) أسباب القوّة والاستقرار المادي، وهو ما لم تدركه قريش، فالآية تشير إلى قبيلة عاد التي عاشت في منطقة (الأحقاف) وهي الكثبان الرّمليّة الموجودة في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربيّة. بحيث كانوا مثالًا واضحًا على التّمكن المادي الهائل، إذ أنّ الله منحهم "كثرة المال وطول العمر وقوّة الأبدان"² ومنها

¹ أبو محمد بن عطية الأندلسي، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج4، ص473.

² محمّد صديق خان القنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن، ج13، ص33.

وسائل الإدراك (سمع وبصر وأفئدة)، ورزقًا وفيرًا، وطولَ عُمر، غير أنَّ كلَّ هذه النِّعم لم يرافقها تثبيتٌ إيمانيٌّ. وعليه، فالآية تُظهر لنا أنَّ التَّمَكِينَ المعرفيَّ والماديَّ لا يُجدي نفعًا مع الذين فقدوا رسوخ العقيدة.

1-2-10- تمكينُ ذي القرنين؛ من الله منَّة، ومن ذي القرنين إقرارٌ: وفي رواية قصَّة ذي القرنين

من سورة الكهف، ورد الجذر (م ك ن) في قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84] بصيغة الفعل الماضي ﴿مَكَّنَّا﴾ المسند إلى "نون" العظمة؛ فالتَّمَكِينُ في هذا الموضع يعني السَّيَادَة. فقد جعل الله عزَّ وجلَّ لذي القرنين "مُكْنَةً" وقدرةً على التَّصَرُّفِ في الأرض من حيث التَّدْبِيرُ والرَّأْيُ وكثرةُ الجنود والهيبةُ والوقارُ¹ ويُعدُّ هذا التَّمَكِينُ من وسائل القوَّة التي سَخَّرَهَا اللهُ لَهُ، وهي الأسبابُ التي استثمرها ذي القرنين لنشر العدل.

وتتَّضح صورة التَّمَكِينِ في هذا المقام في مصدريته، فهو نعمة ربَّانية خالصة لشخصية بلغت درجة من الثَّباتِ الإيماني تؤهلُّها للحكم في الأرض. وأنَّ تمكينه في الأرض كان مقرونًا بالتَّثْبِيتِ القلبيِّ، الذي جعل من سلطته ورئاسته وسيلة لا غاية. فالتَّمَكِينُ الحقُّ هو ما وافق بين قوَّة الإيمان والقُدرة الماديَّة، وهذا ما أكَّدته هذه الآية.

ويسوق الموضع الآخر من السُّورة ذاتها المعنى ذاته، ولكن في مقام الاعتراف من ذي القرنين بنعمة التَّمَكِينِ هذه، فورد الجذر (م ك ن) في قوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: 95] جاء الجذر ﴿مَكَّنِّي﴾ بصيغة الفعل الماضي المسند إلى "ياء" المتكلم، ناقلًا إقرار ذي القرنين بأنَّ القوَّة التي يمتلكها، إنما هي نتيجة منَّة ربَّانية وعطاءٍ إلهيٍّ لا يملك من أمر تدبيره لنفسه منه شيئًا. وفيه دليلٌ على تواضعه وقوَّة إيمانه؛ وتجلَّى ذلك في أنَّه رفض أخذ أجر بناء السِّدِّ، مبرِّرا

¹ - شهاب الدِّين الألوَسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبْعِ المثاني، تح: علي عبد الباري عطية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ، ج2، ص351.

بأن ما منحه الله من قوةٍ وقدرٍ خيرٌ وأدوم من أموالهم. كما تُسهم هذه الصيغة في تعزيز فكرة استمرارية أثر التمكن في حماية الفئات المستضعفة. ليستكمل مشهد التمكن في هذه الآية في قدرة إلهية يمنحها الله لتحقيق الحماية ودفع الفساد من منطلق العدل والإنصاف.

1-2-11- تذكير بأول صور تمكين الإنسان في الأرض: يعود مصطلح التمكن في هذا الموضع

من سورة المؤمنون: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون:13] إلى أصله المادي (الحسي) المتعلق بالاستقرار والثبات. فصيغة الجذر جاءت صفة مشبهة باسم الفاعل، فهي تدلّ على ثبات الصفة ودوامها واستمرارها. ونجد أنه تم وصف القرار بمكين، وهو "حيث استقرت فيه نطفة الرجل من رحم المرأة ووصفه بأنه مكين؛ لأنه مكن لذلك، وهياً له ليستقر فيه إلى بلوغ أمره الذي جعله له قراراً"¹. أي الموضع المجهر والتهيئة التي تضمن سلامة النطفة في الرحم. ومعنى التمكن هنا استقرار وجودي يؤمن شعور الكائن بأنه مستقر وثابت، غير مهدد بالزوال أو الاضطراب.

1-2-12- وصف لجمال وعنوان على حماية: وردت مادة (م ك ن) في سورة الطور ﴿وَيُطَوَّفُ

عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ [الطور:24] بصيغة اسم المفعول ﴿مَكْنُونٌ﴾ لوصف النعيم الدائم في الجنة بما يحمله من نقاء وصفاء لا يشوبه كدر. بحيث شبه الله الغلمان بالؤلؤ المكنون في أصدافه "وَاللُّؤْلُؤُ: الدُّرُّ. وَالْمَكْنُونُ: الْمَخْزُونُ لِنَفَاسَتِهِ عَلَى أَرْبَابِهِ فَلَا يُتَحَلَّى بِهِ إِلَّا فِي الْمَحَافِلِ وَالْمَوَاقِبِ فَلِذَلِكَ يَبْقَى عَلَى لَمَعَانِهِ وَبَيَاضِهِ"² أي الشيء المحفوظ المحصن في الداخل، البعيد عن كل المؤثرات الخارجية. واختيار لفظ "مَكْنُون" يعكس دلالة أعمق؛ إذ لا يعبر فقط عن الجمال الظاهر، بل يضيف معنى الحماية والاحتواء، مما يمنح المشهد بُعداً دلاليًا وجماليًا مركبًا. فالتمكن هنا يعني كمال الصورة واستمراريتها على الحالة نفسها.

¹ - أبو جعفر محمد الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله التركي، ط1، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، مصر، 2001م، ج17، ص20.

² - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج27، ص56.

1-2-13- تمكين المؤمنين في الأرض؛ وسيلة وغاية: أما فيما يخص موضع الجذر (م ك ن)

في سورة الحج ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^١ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿[الحج: 41] فتنتقل مادة (م ك ن) إلى حيز السياق الشرطي، حيث يبين لنا أنَّ التمكن هنا يتسم بالمسؤولية، فجاء الفعل ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ بصيغة الماضي المسند إلى "نون" العظمة، والمقترن بأداة الشرط. ممَّا يدلُّ على أنَّ التمكن هبةٌ إلهية تستهدف تمكين المنهج لا الفرد، ممَّا يخلق رابطاً وثيقاً بين رسوخ العقيدة وبين الفعل الإصلاحي في الأرض.

جدول يلخص الفترة المكية للجذر (م ك ن) مرتباً حسب النزول

الترتيب	السورة	الآية
7	التكوير	﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: 20]
33	المرسلات	﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المرسلات: 21]
39	الأعراف	﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10]
49	القصص	﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 6] ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُحْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 57]
53	يوسف	﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21] ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: 54] ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56]

55	الأنعام	﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 6]
56	الصافات	﴿كَانَتْهُمْ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: 49]
66	الأحقاف	﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْعِدَّةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: 26]
69	الكهف	﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84] ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: 95]
74	المؤمنون	﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: 13]
76	الطور	﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ [الطور: 24]
88	الحج	﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]

انصبَّ التأسيس المكيُّ للجذر (م ك ن) على بناء الاستقرار الذهني وصناعة اليقين بالمآل فإنَّ الانتقال إلى الفضاء المدني قد نقل المصطلح إلى حيز الواقعية الحركية، حيث اكتسب الجذر دلالاتٍ مفهوميةً صبغتها خصوصية المرحلة التشريعية وبناء الدولة. ولم يعد التمكن في هذا السياق مجرد وعدٍ غيبي، بل أصبح قانوناً اجتماعياً مرتبطاً بمدى رسوخ المنهج في النفوس؛ ونجد أنَّ الجذر (م ك ن) قد واكب في هذه المرحلة نضوج الأمة وانتقالها من الاستضعاف إلى التمكن، فتحوّلت الدلالات اللغوية الحسية (كالاستقرار والحفظ) إلى أدواتٍ سياديةٍ قادرة على حماية الثوابت العقدية، ليظهر (التمكن) داعماً ميدانياً لـ (التثبيت) ومحصلةً نهائيةً لاكتمال الاستعمال القرآني في ضبط علاقة الأمة بالحق وبالخلق.

1-3- التَّمَكِينُ فِي الْقُرْآنِ الْمَدْنِيِّ وَاسْتَوَاءُ الْمَفْهُومِ: لم يرد الجذر (م ك ن) في المرحلة المدنية

كثيراً، ولكنَّ اللَّاقِطَ هو حضوره الفارق والحازم، فمع وروده في موضعين اثنين فقط؛ إلا أنَّهما موضعين حَمَلًا حسماً واضحاً لنضج المفهوم واكتمال حملته.

1-3-1- التَّأْصِيلُ النَّهَائِيُّ لِتَمَكِينٍ لَا تَهْدِيهِ الْعَوَارِضُ: شَكَّلَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ بُورَةً مُمَيِّزَةً لِلْجَذْرِ (ث

ب ت) حضوراً ودلالة، وتسجّل حضورها لتستقبل الجذر المساند (م ك ن) في سياقٍ لافتٍ غير بعيدٍ عن حضور الجذر (ث ب ت)، فجاء بعد جميع استعمالاته وفي موضع له دلالاته من السُّورَةِ ومن القرآن الكريم كَلِمَةً. فقد وردَ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 71] حيث جاء الفعل ﴿فَأَمْكَنَ﴾ بصيغةٍ غير مألوفة، لم يفصل القول فيه أكثر المفسرين وأهل اللغة، إلا ما كان من صاحب التحرير والتَّنْوِيرِ الذي استفتح تناوله له بالتَّسْأُولِ عن اشتقاقه "هَلْ هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمَكَانِ أَوْ مِنَ الْإِمْكَانِ بِمَعْنَى الْإِسْطِطَاعَةِ أَوْ مِنَ الْمَكَانَةِ بِمَعْنَى الظَّرْفِ"¹ وبعد أن استعرض ما جاء عنه في أساس البلاغة من أن "أَمْكَنَنِي الْأَمْرُ مَعْنَاهُ: أَمْكَنَنِي مِنْ نَفْسِهِ"² وفي المصباح المنير: "مَكَّنْتُهُ مِنَ الشَّيْءِ تَمَكِينًا. وَأَمْكَنْتُهُ: جَعَلْتُ لَهُ عَلَيْهِ قُدْرَةً"³ ذهب إلى أن الفعل بهذه الصيغة "مُشْتَقٌّ مِنَ الْمَكَانِ، وَأَنَّ الْهَمْزَةَ فِيهِ لِلْجَعْلِ، وَأَنَّ مَعْنَى أَمْكَنَهُ مِنْ كَذَا: جَعَلَ لَهُ مِنْهُ مَكَانًا، أَيْ: مَقَرًّا، وَأَنَّ الْمَكَانَ مَجَازٌ أَوْ كِنَايَةٌ عَنْ كَوْنِهِ فِي تَصَرُّفِهِ كَمَا يَكُونُ الْمَكَانُ مَجَازًا لِلْكَائِنِ فِيهِ"⁴ ففي سياقٍ تعقيبٍ شديد اللّهُجَةِ لأسرى بدر الذين "خَانُوا اللَّهَ بِمَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنْ مُحَارَبَةِ الرَّسُولِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَأَمْكَنَ اللَّهُ مِنْهُمْ قَتْلًا وَأَسْرًا، وَذَلِكَ نِهَايَةُ الْإِمْكَانِ

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتَّنْوِيرِ، ج 10، ص 82.

² - محمود بن عمر الرَّمَحْشَرِي، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ - 1998م، ج 2، ص 223.

³ - أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تح: عبد العظيم الشناوي، ط 2، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 577.

⁴ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتَّنْوِيرِ، ج 10، ص 82.

والظفر¹ وبصيغة الماضي المتعدي الدالة على الاستعلاء والافتقار؛ يتناول المقام طريقة معالجة ملف الأسرى، وعدم التهاون فيما يهدد تمكيناً لبث الوحي زمناً طويلاً يرسى قواعده في الذهنية الإسلامية، ويؤصل كيفية التعامل مع كل ما يرجع بما تحقق منها إلى الوراء.

وإذا كان المعنيون بهذا التصرف أسرى بدر بحكم ما نزل فيهم؛ فإن قاعدة التمكن تبقى صالحة لتعميمها على أي حالة مشابهة، والصياغة الصرفية ﴿فَأَمَّا مَكَّن﴾ صريحة في إسناد الفعل وما يترتب عنه إلى الله تعالى، فهو الذي منح للمؤمنين السلطة والقدرة والنفوذ.

ولا يخفى هنا أن التمكن في المرحلة المدنية ارتبط بالتثبيت، فأتضحت مساندته له بوضوح، وصار يمثل نتيجة ميدانية لصبر المؤمنين وثباتهم؛ فالله الذي منح الثبات في الميدان، هو نفسه جلّ وعلا الذي أيدهم بمعينته عند مواجهتهم العدو، وهو الذي جعل التمكن هنا وسيلة لإقامة العدل وحماية جوهر الدين.

1-3-2- ذروة التمكن للشريعة والمؤمنين: بالانتقال إلى الموضع الذي ورد في سورة النور في

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَصْحَلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55] جاء الجذر (م ك ن) بصيغة تدل على التأكيد واليقين في حدوث الفعل واستمراريته. فالسياق في هذا الموضع هو تمكين المنهج واستقرار الشريعة، بحيث يتجاوز المعنى اللغوي إلى فكرة تمكين الدين ليكون العزيز المهيمن، والمرجع الأساس للناس في الواقع. لأن الله وعد المسلمين بأن ينصرهم على الكافرين "وَأَنْ يُمَكِّنَ الدِّينَ المَرْتَضَى وَهُوَ دِينُ الإسلام ... وَأَنْ يُؤَمِّنَ سِرْبَهُمْ وَيَزِيلَ عَنْهُمْ الخُوفَ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ فَأَنْجَزَ اللهُ وَعْدَهُ، وَأَظْهَرَهُمْ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَافْتَتَحُوا بَعْدَ بِلَادِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَمَزَقُوا مَلِكَ الْأَكَاسِرَةِ، وَمَلَكُوا خَزَائِنَهُمْ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى الدُّنْيَا"² وهنا يظهر ذلك الارتباط

¹ - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج15، ص515.

² - محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف، ج3، ص251.

القويّ بـ (التّثبيت) في كون هذا الوعد مشروطاً بالإيمان، وهي القيم التي تمّ التّثبيت عليها خلال الفترة المكيّة؛ فالتّثبيت القولي والقلبي يُعدّان الشرط الذي أدّى إلى التّمكن القائم على المنهج والاستخلاف في الأرض، ومن دونه يفقد التّمكن صفة الاستقرار والاستمرار.

جدول يلخص الفترة المدنية للجذر (م ك ن) مرتّباً حسب النزول

ترتيب السّورة	السّورة	الآية
88	الأنفال	﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 71]
103	النّور	﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْاَرْضِ كَمَا اَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ اَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ [النّور: 55]

خاتمة

خاتمة: بعد هذه الرحلة التي سلكها البحث في شُعَبِ النِّظَمِ القرآنيِّ، تتبَّعاً لجذريِّ (ث ب ت) و (م ك ن) في المرحلتين المكيَّة والمدينية، ومن خلال تتبُّع مسيرتيَّهما في فترتيَّ النزول كلاً بخصوصيتهما الاجتماعية والثقافية والتَّاريخية؛ تابعت الدِّراسة كلا المصطلحين على حدة، وفي إطار علاقتهما مع المصطلح الآخر بوصفه مصطلحاً مسانداً؛ نصل إلى قراءةٍ كليَّةٍ تحمل ثمرة هذا المسار الدَّلالي، لنكتشف في نهاية المطاف أنَّ كلا المصطلحين قد بلغا مرحلة من الاستقرار المفهومي.

وإضافة إلى هذه النَّتيجة العامَّة؛ فقد بلغ البحث جملة من النَّتائج الجزئية نوردها في الآتي:

- اختار البحث في بدايته تناول المادَّتين (ث ب ت) و (م ك ن) بألفاظٍ من قبيل: الجذر، والمفردة، والكلمة؛ باعتبار أنَّ دلالتيهما كانت تنطلق من أصلٍ معجميٍّ ذي طابعٍ حسيٍّ، غير أنَّ التَّبَّع الدَّلالي لمواضع ورود الجذريْن في المرحلتين المكيَّة والمدينية، كشف عن تحوُّلٍ دلاليٍّ عميق، ألهُما للارتقاء إلى مستوى (المصطلح) لما اكتسبه كلُّ منهما من حمولةٍ مفهوميةٍ ولسانيةٍ وقرآنيةٍ، تشكَّلت ملامحها عبر سياقات التَّنزيل وتنوُّع مقتضيات الوحي.

- إنَّ التَّحوُّل الدَّلالي الذي ارتقت من خلاله مادَّة (ث ب ت) من مجرد جذرٍ لغويٍّ إلى مصطلحٍ قرآنيٍّ ذي أبعادٍ مفهوميةٍ، تعدَّدت معه صور التَّثبيت وتنوَّعت تجلَّياته بحسب مقتضيات السِّياق القرآنيِّ ومراحل التَّنزيل، ومن أبرز طرائق التَّثبيت التي ظهرت في بداية المرحلة المكية: تثبيتُ قلب النَّبي ﷺ، من خلال طريقة النزول القرآني المتدرِّج والمفرَّق، كما تجلَّى التَّثبيت أيضاً عبر قصص الأنبياء، لما تحمله من معاني الصَّبر والمواساة وترسيخ اليقين في مواجهة الشَّدائد، ومع امتداد المرحلة الدَّعوية وتطوُّر مقتضياتها؛ فقد اتخذ التَّثبيت مساراً آخر، تمثَّل في تثبيت المؤمنين بوسائل متعدِّدة؛ كالدُّعاء، والقول النَّابت، وبتَّ الطُّمأنينة في القلوب، بما يعزِّز رسوخ العقيدة ويقوِّي القدرة على مواجهة الابتلاءات والتَّحديات.

ورغم تعدُّد صور التَّثبيت وتنوُّع تجلَّياته؛ فإنَّ جوهره يقوم على بُعدين متكاملين: البعد الحركي والبعد العقدي مع اختلاف تجلَّيهما بحسب مقتضيات المرحلتين المكيَّة والمدينية.

فأما التثبيت العقدي، فقد برز بصورة أوضح في المرحلة المكيّة، حيث تعلّق بتثبيت النّبِيِّ ﷺ والمؤمنين على مواصلة الدّعوة، وترسيخ اليقين في القلوب وتعميق الثّقة بالله، والصّمود أمام ما واجهوه من أذى واضطهاد.

وأما التثبيت الحركي، فقد تجلّى بصورة أوسع في المرحلة المدنية، من خلال ما يعكس حضور الإيمان في الواقع العملي، وتجسّده في السّلوّك والممارسة بما يحفظ الجماعة المؤمنة من الاضطراب ويمنحها الطمأنينة والثّبات الداخلي في مواجهة التّحدّيات المختلفة.

مرّ التّمكن بمسارٍ مماثلٍ لمسار التثبيت، إذ انطلق من دلالاته المعجمية ثمّ تطوّر إلى دلالةٍ مصطلحيةٍ قرآنيةٍ، فهو يُعدّ الجائزة الرّبّانية التي لا ينالها إلّا من استوفى مقتضيات التثبيت بمفاهيمه المختلفة؛ وهو مألّ استراتيجيّ لمسارٍ يبدأ بالترسيخ العقدي والنّفسي، وينتهي بالاعتقاد الحضاري. وهذه الرؤية ليست وليدة اجتهادٍ معاصر، بل تشكّلت عبر قرونٍ من النّظر في الخطاب القرآنيّ وتدبّر سُننه. ويتّضح من ذلك أنّ التّحوّلات الدّلالية لهذين المصطلحين لم تكن انتقالاً في المعنى؛ بل كانت موجّهة نحو غايةٍ كبرى تتمثّل في بناء الأمّة، وإعدادها للقيام بوظيفتها الاستخلافية.

تميّزت سورة الأنفال بخصوصيةٍ دلالية بارزة، إذ تُعدّ بؤرةً مركزيّةً في استقبال مصطلحيّ (التثبيت) و(التّمكن)؛ فهي السّورة الوحيدة التي اجتمع فيها المصطلحان معاً، بما يمنحها ثقلًا دلاليًا خاصًا داخل النّسق القرآني. وتتجلّى هذه الخصوصية في عدّة مظاهر:

أولاً: لموقع نزولها، فهي من أواخر ما نزل من القرآن، وقد نزلت في سياقٍ ارتبط ببناء الجماعة المؤمنة وإعدادها لمقتضيات المواجهة والاعتقاد.

ثانيًا: تكرار مصطلح التثبيت فيها، بحيث اختلفت سياقاته بما يوحي إلى معنى الثّبات في ساحة المواجهة، سواء من خلال تثبيت القلوب أو تثبيت الأقدام، وانعكاس البعد الحركي والقتالي للمصطلح.

ثالثاً: ورود مصطلح التمكن في السورة نفسها ليس أمراً اعتباطياً؛ بل يحمل دلالة عميقة توحى بالعلاقة العضوية بين التثبيت والتمكن؛ إذ يبدو التثبيت فيها ضرورة وشرطاً سابقاً لبلوغ التمكن وتحقيق الاقتدار. وهو الموضع الوحيد الذي انفرد العلامة ابن عاشور بتفصيلٍ بديعٍ فيه، في الموضع الذي ورد في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: 71] وربط الفعل بثلاثة مسارات اشتقاقية (المكان، المكانة، الإمكان). وهذا التفصيل يبين أنَّ التمكن الذي سجّله سورة الأنفال هو تمكينٌ اقتدارٍ وتدبيرٍ؛ فالله جعل للمؤمنين من عدوهم مكاناً ومجالاً للنصر، وهو ما نُسّميه بـ (التمكن الميداني).

- تعدُّ سورة النور آخر سورة ورد فيها الجذر (م ك ن) في قوله تعالى: ﴿وَلَيُمْكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ [النور: 55] وقد استند التمكن فيها إلى (لام القسم ونون التوكيد) ليعلن عن الانتقال إلى تمكين المنهج. والمقارنة بين الموضعين الأخيرين من المرحلة المدنية تكشف أنَّ (الإمكان من العدو) كان مرحلةً ممهّدة، بينما (تمكين الدين) هو الغاية الختامية التي لا تتحقّق إلاّ بالثبات المطلق على قيم الشريعة.

- لا نقصد بكلمة "المصطلح" في هذا البحث ما تواضع عليه الناس، وجرى استعماله في الاصطلاحات العلمية المتداولة، وإنّما نقصد به الجانب المفهومي الذي استقرّت عليه دلالة الجذر داخل الخطاب القرآني؛ ذلك أنَّ المصطلح ذو حمولة لغوية ودلالية تتجاوز معناه المعجمي الأول. وعليه، فقد اقتصر توظيفنا للمصطلح على خاصيّته المفاهيمية الثابتة التي شكّلت عبر سياقات الاستعمال القرآني.

- إنّ التحوّلات الدلالية التي شهدتها الجذران لم تكن تحوّلاتٍ لغويةً فحسب؛ بل كانت موجّهة نحو بناء الإنسان المؤمن وإعداد الأمة للقيام بوظيفتها الحضارية. ويبقى هذا العمل مجرد محاولةٍ علميةٍ تسعى إلى الإسهام في فهم خصوصية الاستعمال القرآني، دون ادّعاء الإحاطة أو بلوغ الكمال.

التوصيات: لا تقف ثمرة هذا البحث عند حدود نتائجه، فإنّي أوصي نفسي أولاً وأدعو زملائي من أهل العلم والباحثين بأنّ يعدّوا هذا العمل لفت انتباه إلى ما يمكن أن يكون نقطة انطلاق نحو دعم درس جديد.

كما أوصي بإنشاء (معجم حضاري) لمصطلحات القرآن الكريم يضم المصطلحات التي نضجت خلال فترة النزول مثلاً (الاستضعاف بجانب الاستخلاف) مع التركيز على الأبعاد النفسية والاجتماعية، وذلك من أجل تغيير سلوك الإنسان والتأثير فيه. فالمعرفة بالبنى اللغوية هي البوابة الوحيدة لفهم آمن، يحمي الفكر من الانحراف، ويثبت النفس على الحق، ويساعد في تجسيد القرآن في حياتنا كما فعل ذلك في قلوبنا.

وفي الختام، نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا في تناول النص القرآني بما يليق بقدسيته وجلاله، وأن لا نكون قد جانبنا حرمة أو قصرنا في حقه، إنه ولي التوفيق والسداد.

ملحق

ملحق الآيات:

سورة البقرة

1. ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 250]

2. ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ

فَقَاتَتْ أَكْثَارَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 265]

سورة آل عمران

1. ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 147]

سورة النساء

1. ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ

فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾ [النساء: 66]

سورة الأنعام

1. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ

مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 6]

سورة الأعراف

1. ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10]

سورة الأنفال

1. ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11]
2. ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12]
3. ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: 30]
4. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]
5. ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 71]

سورة هود

1. ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120]

سورة يوسف

1. ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21]

2. ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: 21]

3. ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56]

سورة الرعد

1. ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39]

سورة إبراهيم

1. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم:

[24]

2. ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ

اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27]

سورة النحل

1. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 94]

2. ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:

[102]

سورة الإسراء

1. ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 74]

سورة الكهف

1. ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84]

2. ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا 95﴾ [الكهف: 95]

سورة الحج

1. ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ

عَقِيبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]

سورة المؤمنون

1. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: 13]

سورة النور

1. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ۖ كَمَا أُسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَنْ

كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55]

سورة الفرقان

1. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۖ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا

﴾ [الفرقان: 32]

سورة القصص

1. ﴿وَنُмَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 6]

2. ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهَدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا ۖ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ

شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 57]

سورة الصافات

1. ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: 49]

سورة الأحقاف

1. ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف:

[26]

سورة الحجرات

1. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]

سورة الطور

1. ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ [الطور: 24]

سورة المرسلات

1. ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: 21]

2. ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: 21]

سورة التكوير

1. ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: 20]

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

• القرآن الكريم.

• المصادر باللغة العربية:

1. أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، د ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1.
2. أبو جعفر بن خالويه الأصبهاني، إعراب القراءات السبع وعللها، تح: أبو محمد الأسيوطي، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1327هـ-2006م.
3. أبو جعفر محمد الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله التركي، ط1، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، مصر، 2001م، ج17.
4. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح: محمد جميل العطّار، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000م، ج7.
5. أبو محمد بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ ج3.
6. أحمد بن أبي بكر الجبلي، البستان في إعراب مشكلات القرآن، تح: أحمد محمد عبد الرحمن الجندي، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1439هـ-2018م، ج1.
7. أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ط2، دار الجيل ودار الفكر، بيروت، 1972م، ج1.
8. الفيومي أحمد بن محمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تح: عبد العظيم الشناوي، ط2، دار المعارف.

9. البقاعي برهان الدين ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسُّور، تح: محمد عبد المعيد خان، ط1، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، 4198م، ج18.
10. السُّيوطي جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ط1، دار الفكر، بيروت، 2011م، ج4.
11. جماعة من علماء التفسير، المختصر في التفسير القرآن الكريم، ط3، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، 2015م، ج1.
12. جمال الدين بن منظور، لسان العرب، تح: اليازجي وآخرين، ط3، دار صادر، بيروت، 1993م.
13. دراسات في تميُّز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، إسحاق السَّعدي، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1434هـ-2013م.
14. طرفة بن العبد، تح: مهدي محمَّد ناصر الدين، ديوان طَرْفَة، ط3، دار الكتب العلمية، 1423هـ-2002م.
15. شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبْع المثاني، تح: علي عبد الباري عطية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ، ج2.
16. صافية زفكي، المعجمية والمعجمات اللُّغوية العامَّة العربية الحديثة، ط1، الهيئة العامَّة السُّورية للكتاب، دمشق، سوريا، 2007م.
17. عبد الرزَّاق حسين أحمد، المكي والمدني في القرآن الكريم، ط1، دار ابن عفَّان للنَّشر والتَّوزيع، 1420هـ-1999م، القاهرة، مصر، ج1.
18. عبد الله بن يوسف العنزي، المقَدِّمات الأساسية في علوم القرآن، ط1، مركز البحوث الإسلامية، ليدز، بريطانيا، 1422هـ-2001م.

19. عزوز بن عمر الشّوالي، التّناول الحدّاثي للخطاب الشّرعي الإسلامي وإشكاليات المنهج، ط1، مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس، تونس، 2017م.
20. فاضل السّامرائي، أسرار البيان في التّعبير القرآني، ط1، دار ابن كثير، سوريا، 2015م.
21. فخر الدّين الرّازي، مفاتيح الغيب، ط3، دار إحياء الثّراث العربي، بيروت، 2000م، ج15.
22. فضل حسن عبّاس، التّفسير والمفسّرون أساسياته وإتّجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، ط1، دار النّفائس للنّشر والتّوزيع، الأردن، 1437هـ-2016م، ج1.
23. لجنة علمية من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ط2، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف، المملكة العربية السعودية، 2009م، ج1.
24. محمد أحمد إسماعيل المقدّم، تفسير القرآن الكريم، دروس صوتية مفرّغة. موقع الشّبكة الإسلامية، ج136.
25. محمّد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسية للنّشر، تونس، 1984-1404هـ، ج13.
26. محمّد صديق خان القنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن، تح: عبد الله الأنصاري، د ط، المكتبة العصرية للطباعة والنّشر، بيروت، 1992م، ج5.
27. محمّد عزة دروزة، التّفسير الحديث ترتيب السّور حسب النّزول، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1984م، بيروت، لبنان، ج1.
28. محمّد مرتضى الزّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، د ط، دار الهداية، الكويت، 2001م.
29. محمود بن عمر الرّمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السّود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ-1998م، ج2.

30. محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه

التأويل، تح: مصطفى حسين أحمد، ط3، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، 1987م، ج3.

31. مساعد الطيار، التفسير اللغوي للقران الكريم، ط1، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية

السعودية، 2011م.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات:

الصفحة	العنوان
-	إهداء
-	شكر وعرفان
أ - و	مقدمة
مدخل مصطلحات البحث ومفاهيم التأسيس	
9	1- مصطلحات مستقرّة ذاتيا، أو المصطلح الدّال بذاته (الأيقوني)
10	2- مصطلحات تتجلّى دلالاتها على مستوى السّطح القرآنيّ كلّ
11	3- المصطلح الذي تتجلّى دلالاته في ضوء مسانده
12	4- مصطلحا "التّثبيت والتّمكن" في القرآن الكريم؛ اكتساب المصطلحين للمفهوم
الفصل الأول: مصطلح "التّثبيت" في القرآن الكريم؛ مسار اكتساب المصطلح للمفهوم	
16	1- حضور مادّة (ث ب ت) في القرآن المكيّ؛ من دلالة اللّغة إلى المفهوم القرآني
16	1-1- مسار مادّة (ث ب ت) في اكتساب الدلالة المعجمية
18	1-2- الجذر (ث ب ت) في القرآن المكيّ؛ تدرّجات اكتساب المفهوم
19	1-2-1- تثبيت فؤاد النّبيّ ﷺ بطريقة نزول القرآن
20	1-2-2- تثبيت النّبيّ ﷺ ضدّ الرّجوع والتّنازل
20	1-2-3- تثبيت النّبيّ ﷺ بقصص إخوانه الأنبياء
21	1-2-4- من تثبيت الذات إلى تثبيت المنهج
23	1-2-5- تثبيت المؤمنين بالنّبيّ ﷺ والنّبوة
27	2- التّثبيت والتّمكن في القرآن؛ ثبات اللّغة وتطوّر الدلالة
27	1-2- التّمهيد للتّثبيت الجسديّ بعد التأسيس للتّثبيت المعنوي
28	2-2- إنفاق الأموال في رضى الله إحدى أدوات التّثبيت
28	3-2- الفرصة العملية الأولى على مسار التّثبيت
30	2-4- دلالة لغوية متأخّرة عن حدثٍ مفصليّ سابق

31	2-5- اقتداءً بسلوك السابقين في الباطن والظاهر
32	2-6- ظاهرة التفاف تهدد مفهوم التثبيت الناشئ
33	2-7- نصره تقابلها نصره؛ والتثبيت زيادة
33	2-8- التثبيت جهاداً أخلاقياً يؤمن الجبهة الداخلية في المجتمع
الفصل الثاني: التمكن في القرآن الكريم؛ اكتمال معاني الاستعمال	
37	1- حضور مادة (م ك ن) في القرآن المكّي؛ من دلالة اللغة إلى المفهوم القرآني
37	1-1- مسار مادة (م ك ن) في اكتساب الدلالة المعجمية
39	1-2- مسار (م ك ن) في القرآني المكّي
40	1-2-1- دلالة المكانة لرسول الوحي جبريل عليه السلام
41	1-2-2- الرّجْم وأول مظاهر الاستقرار في المكان
41	1-2-3- التمكن في الأرض في سياق المنّة بالاستقرار في المكان
41	1-2-4- التمكن في الأرض مراد الله لعباده
42	1-2-5- البلد الحرام تمكين قديراً خالداً
42	1-2-6- تمكين الصالحين جائزة وتكليف
44	1-2-7- التمكن في الأرض تمام نعمة وبداية نقمة
45	1-2-8- كمال الرعاية والترغيب في جمال النهاية
45	1-2-9- تمكين الاستدراج؛ مشهد وعاقبة
46	1-2-10- تمكين ذي القرنين؛ من الله منّة، ومن ذي القرنين إقراراً
47	1-2-11- تدكير بأول صور تمكين الإنسان في الأرض
47	1-2-12- وصف لجمال وعنوان على حماية
48	1-2-13- تمكين المؤمنين في الأرض؛ وسيلة وغاية
50	1-3- التمكن في القرآن المدني واستواء المفهوم
50	1-3-1- التأصيل النهائي لتمكين لا تهدده العوارض
51	1-3-2- ذروة التمكن للشريعة والمؤمنين

54	خاتمة
59	ملحق
65	قائمة المصادر والمراجع
70	فهرس المحتويات